
بنات
الداون تاون


المرتضى
مكتبة السودانية

بنات الداون تاون

مجموعة قصصية

يس سليمان

بنات الداون تاون

المؤلف : **يس سليمان**

الغلاف : **ناصر الأمين**

التصميم الداخلى : **هانى عبدالرحمن**

الناشر : **أوراق للنشر والتوزيع**

6 شارع زهرة رمزى ـ الملك فيصل ـ الجيزة

البريد الإلكترونى: awraaq@live.com

التليفون: 00201221110435 - 00201112750799

الطبعة الثالثة : **ير** 2013

رقم الإيداع : 2010/0000

الترقيم الدولى : 978-977-5163-00-0

وكيل الإمارات: **مؤسسة الأجواد لتجارة الورق والنشر والتوزيع**

تليفون : 00971501550160

الايميل: tarkmaarek2000@Gmail.com

وكيل السودان: **أمانى أبوالريش**

تليفون : 00249923831541 ـ 00240911123249

الايميل: aaboalrish2009@hotmail.com

نافذة

قُبلةٌ تصلي الشــوقَ قصراً على شــفتيك، قبل أن تفىء إلى بارئها وتســقط على مقربة من أنفاســك، شرعت في الوضوءِ لفــرطِ ثمالتها من غيمــةٍ لم تمطر أصــلاً. كان الصمت عالياً، فســمعنا وأطعنا. للحظةٍ بــدت يتيمة، كان الحــبّ هو النافذة الوحيدة التي نتلو ما تيسّر من هوائها.

العم ماديسون
والجدة روبيكا

لم تزل السماء قادرة علي العطاء. كل ما هناك كان يوحي بذلك. المدهش أن أنثي السـماء الاسـتوائية كائناً وولوداً لا تعترفْ بتنظيمِ الهطولِ، وغيمها لا يستعمل الواقي المطري. ارتحلت الشـَمس قبل ما يقارب السـاعتين. لم أكن أرتدي وقتها ساعتي السويسرية فقد أصابها الدّوار في الليلةِ الماضية، لأنها ركبت البحر. ولكنني عرفت الوقت لأنّ الأرضَ بدأت تهتزُّ تحت أقدام الراقصين السكاري، وهم يدكون الأرض دكاً دكـاً، مع نغمات موسيقي الريقي العالية وضجيج الطبول. أقبل الليل يرفل في جلبابه الجميل، وكان الحلم مباح.

تتداخلُ السـحنات السـوداء مع بعضِ الوجـوهِ الملونةِ، وينحـازُ اللونُ الأخضرُ إلي معطيـات اللوحة مكوناً قاعدةَ

بيانات الخريطةَ، وينهزم عنــد الأعلي قليلاً حين اصطدامه برؤوس أكواخ من القش المتناسق. ويتشكلُ بداخلي إحساس تآلف الأخضــر مع اليابسِ وتصالح الوحل مع أحجارِ التلّة الصغيــرة، في اســتقامة أمينة لتجليات ربانية لا يســتطيع ســلفادور دالي إلا أن يصفق لها إعجاباً. وينتقلُ فكري في فجـــائيةِ إلي غيمةٍ جبّارةٍ في المنتصف من الأفقِ. شــديدةُ الهشاشــةٌ في الأطرافِ، كانت تتعاركُ مع نصفِ قمر. هي تريــد أن تكونَ أكثرَ أنانيةً وتنعــمُ ببعضِ البريق، وهو يريد أن يكونَ أكثرَ تحرراً ويأملُ في أن يطل علي الغابةِ ليستنشــق بعضَ الرحيق، أو يرقصُ رقصةَ الحصاد مع ظلال الأجسادِ نصفِ الكاســيةٍ، أو يدندنُ مع عازفِ الغيتــارِ الثّمل أغنية أفريكا يونيت ويحيي ذكري بــوب مارلي. وتتصارعُ فيهِما الغايات والأمنيات.

استندتُ قليلاً علي الكرسي الخشبي وبدأت رحلة تفكيري، وأحسســت أن العم مــاديسون يصرُّ عليٍ أن يشركني معه في التدخينِ. فقد كان يلســعني فــي كلِ لحظةٍ بلفحةٍ من دخــانِ غليونــهِ العتيق. ولكن هذا لم يمنعني من اســتراقِ النظرِ إلي ملابســهِ المذركشــةِ الصارخةِ الألوانِ في تضادٍ، وربطة عنقه التي تشبه مثيلاتها لدي بحارة السفن الإسبانية

وهم يتجولون في أرصفــة الموانـي، بعد عودتهم من رحلةِ الشرقِ الغامضِ في خمسيناتِ القرنِ الماضي. ويتباهون أمامَ حســناوات الأندلس صاحبات الأصل العربي. جميلةٌ جداً هذه الملابس علي جسـد العجوزِ الذي جاوز التسعين عاماً ومازال يحتفظُ بحيويةِ ابنِ التاسـع عشـر. يُحكي أنّ عددَ نسـائه بلغ الثلاثة عشـر.. يا للهَول!! فقد تذكرتُ جارنا المسكين الذي ما إن أتي بالثانيةِ حتي ابتلاهُ الله بكلِّ لعناتِ العالمِ وخطّ الشيبُ فوديهُ وهو في ريعانِ الشبابِ وبلغ من الكِبرِ عتيّا.

الله!!! يصرُّ عازفُ الغــيتار علي اصطحابي معه في جولةٍ فنيةٍ. فقد بدأ يدوزن في لحنِ أغنيةِ نو أومان نو كراي مع اشتدادِ حدّةِ البرقِ والرعدِ وكأنّ السـماءَ أرادت توثيقَ هذه اللحظة التاريخية الحالمة ببعضِ الصورِ التذكاريةِ!. وعُدتُ إلي الوراءِ قليلاً حين بدأ عازف الغيتار في تصفّح كلماتِ الأغنية وبدت أنامله الرشيقة وكأنها تتبرّك بالأوتارِ في نعومةٍ ورفقٍ ومهارةٍ فريدةٍ.. وبدوت أنا في غايةِ الاسترخاءِ والاستمتاع. تنامي إلي أذني صوت جلبة. فانتبهت حواسـي قليلاً لاسـتجلاءِ الخبر و.. ربّاه!! إنها الجدّة روبيكا بجسدها الثقيل وكرشها المنتفخ ورأسها الأصلع الصغير. تشهِرُ عصاها الأبنوسية في

وجهِ الساقي المسكين منذرة ومتوعِّدة بالويلِ والثبورِ، إن هو لم يُسرِع و يملأ لها كأسها. من الخمر بالطبع!.

لمحتُ بعض الانزعاج في وجهِ العم ماديســون فقد كانت زوجته الأولــي، ولكنها أصبحت مدمنة خمر بعد أن تزوج عليها للمرةِ الخامسة. فأومأ العمُّ إلي الساقي الذي أتي مسرعاً ومن ثم ذهب ليعود ومعه زجاجة خمر نصفها ماء والنصف الآخر مــن الخمر الرخيص. وعندها تهللت أســارير الجدة روبيكا، واهتزّ جســدها الضخم بضحكةٍ مجلجلةٍ، وألقت بجسدها علي المقعدِ الخشــبي الذي لم يحتمل وزنها فانهار فوراً. وعندما حاول العم ماديسون مساعدتها علي النهوض ثارت في وجهه وقالت له:

تقــول النبوءة إنك ولدتَ حين انتصــاف القمر وتزوجت حين انتصاف القمر، وســتموت أيضــاً حين انتصافه! هكذا قال جدي الساحر الكبير.

عجبت من حديث الجدّة روبيكــا. وتفرست في وجهِ العمِ ماديســون الذي أمّنَ علي كلامها بإيمائةٍ صغيرةٍ من رأســهِ. وتمتم بلغةٍ غريبةٍ ضاعت ملامحها وســط أصوات موسيقي الريقي العالية، وصرخات السكاري الهستيرية طوال الليل.

وانفض ســامر القــوم وانقضت الليلة بخيرها وشــرها.

وعدتُ إلـــي غرفتي الصغيرة التي اتخذتها لتؤويني من المطرِ ولسعاتِ الناموسِ والعقاربِ، في ذلك النزل المتواضع، وأنا أترنّح في وهنٍ. وشعرتُ بأنني سوف أنام شهراً كاملاً علي الأقل، فقد أســرفت في الشـــرابِ هذه الليلة، وأكثرتُ من الحركةِ والرقص.

مرت ثلاث ليالٍ كســابقاتها. وانشــغلتُ أنا كثيراً ببعضِ الأمورِ التجاريةِ. ولكن في طفولةِ هذا المســاء المشبّع برائحةِ المطرِ والدعاش. عدتُ إلي ســاحةِ المدينةِ الاســتوائية التي يرفضُ مسرحها الاستفــاضات الكلامية، ويهتمُ فقط بما هو مرئي. وتجيء الدلالات دون إيغال في الحركة، ولا ركون إلي السكون. وبنفس سرعة الانتقالات المكانية. مع وجــود قطع ديكور مبسّطة بطابعها التلخيصي، تحددُ خصوصــية المكان، وتبرز الأجواء المدارية ورموزهـــا ومفرداتها الفلكلورية دون إســـهاب في التفاصــيل. ومن ثم يأتي دور الشخوص الذين يكوِّنون شـــكل ووحدة العرض، دون تــلكّؤ إحداثي بصري ولا رتابـــة. دخلت الكؤوس في صـــراعٍ مميتٍ علي الزمن. وأصبح من الممكن أن يُلقي برأسي عليً قارعةِ اللاوعي عند أقـــرب منحني. وأنقذني من هذا الســـباقِ المحموم احتضار كأسي الأخير في معدتي. وبدأت أستبين ملامح الصور التي

تكالبت علي بغـتةً.

عـازف الغـيتار لا يـزال يتعبـدّ بأوتاره. وأيقنت أنه بدأ مرحلة الدعوة الجهرية لألحانه، وخرج من كهفِ الدوزنـــة!!! وقال لأغـــانيه:

ماذا تريـنـي فاعلٌ بكِ...!!؟ وما أظــنٌّ أنها كانت من الطليقاتِ في تلك الليلة.

الجدّةُ روبيكا تثورُ في وجهِ الساقي المسكين. ما أتعسه من ســاقٍ! والعم ماديسون لم يوقع في دفترِ الحضور. يزاحمني إيقـــاع الريقي مهما نأيت بمسامعي. لأجد نفسي في حصارِ الطبـــول الإفريقية. ولا أجد منفـــذاً من هذه الضوضاء. إلا إلي نصف الوعي الذي يؤدي إلي انتصارِ الشبكيةِ علي طبلةِ الأذن فـــي اصطراعِ الحواس. فألمـــحُ مجموعة من الراقصين السود السكاري، وبعض عازفي الوازا. لينضم القمـــر إلي تظاهـــرةِ الفوضي حين فـرّت من وجـــههِ غيمتان مراوغتان. ليــزداد الإيقاع حدّةً وينهزم الوعي عند هذه المحطـــة. ليعود فـــي في نهاية الأمر من غير أجنحة. ولكنهُ مازال محلقاً في فضاءات جوبا.

الجميلةُ الفاتنة جوبـا صديقتي. أفتقدك كثيراً أيتها الفاتنة الســـمراء. نعم ابتعدتِ جنوباً، ولكنك تظلين يسار القفص

الصدري، لن تبعدني من حبك قوانين ترسيم الحدود، ولكن سنلتقي في سودانٍ أحفظ ملامحه في وجداني.

وأغادرني إلي حيث الجـدّةِ روبيكا التي وجدتهـا تتمتمُ بتمتمـاتٍ غير مفهـومةٍ، وتعـاويـذ غريبة وهي تفترش الوحـلَ. وبعد قليل تصرخ فجـأةً صرخـةً اهتزّت لها جنبات المكان. وتناثرت حيالها أسـتار الصمت إلي ضجيج عالٍ. ويتوقف الزمان والمكان. وتهتف :

مـاديسون مـاديسـوووون.

ويسقط رأسها الأصلع الصغير علي الأرضِ جثة هامدة.

ويزداد القمـر هياجـاً. وتهـرب من أمامهِ بقية الغيمات، وتفسح له المجال حدَّ الرؤية. ويموج المسرح مرة أخري بكل ما قد يتيحه السـتار من تداخل للشخوصِ وقطع الديكور، ومجري الأحداث يؤكد أن المخرج قد اختار هذه المشـاهد. ختامـاً لروايته الأخيـرة. أما المقاعد فقـد صرخت صمتاً وشهقت بضجّة ضخمة.

وتشـق السـكون صرخةً أخري من بيت الزوجة الرابعة عشـرة للعم ماديسـون وتذهب حواس الجميع لتغطية هذه اللقطة النادرة.

ونسمع زوجته تردد:

لقد مات رجلاً لقد مات رجلاً.

حـــقاً لقد انتصف القمـــر وصدقت النبوءة. وهكذا هي الدنيـــا. لا ينتصفُ فيها القمر إلا ليقود خطانا إلي هاويةٍ من الظلام.

جاء ليثأر من مصطفى سعيد

كان الإنجليزي داف سامبســـون في بداية حياته، يعيش في أحدي مناطق الريف الإنجليزي. لم يكن يتصوّر أن تدور عليه دوائر الزمن ويعيش في السودان. ولكن بعد أن لفظـتهُ أمشاج ســفينة بحرية كانت ترســو في رحم ميناء بورسعيد المصري، وجد نفســه فجأة يعيش في بلادٍ لم يســمع حتي بأهراماتها، فنشـــأ يتيم البحر غريب، وعمرهُ لا يتعدّي الإثـــنى عشــر ربيعــاً، فتقـــاذفته أمواج الرحيل مـــدّاً وجنوباً إلي أن دُفِنت بوصلة تسفاره في رمالِ العتمورِ في قرية ود الريح إحدي قري الولاية الشمالية.

وحدهـــا مواقد الكســـرة قادرة علي تهجـــين جميع اللغات وإعادة صياغة التاريخ الميثولوجي للبشـــر والناس. لذا نجحت

معاول المعايشـــة في هدم الهـــوّة التراكمية في حياة الفتي داف أو كما يعرفه ســـكان ود الريح بمنصور. ونشأت مكانها هوية سودانية شايقية مدهشة شكّل ملامحها هذا العالم البديل.

فعندمـــا تلمحـــهُ في هـــذا الأصيلِ الطـــــازجِ وهو يمتطي حماره المكادي القوي وعلي فوديهِ يعشوشـــب شَيب منتصفِ الأربعـــين، الذي تجرأ وأعلن العصيـــان علي حقل الخصلات السوداء المسترسلة، بينما هو يمازح السابلة والمتسكعين، ويغازل النســـاء بألفـــاظٍ يندي لها الجبين خجلاً!. وفي الجانبِ الآخرِ من الطريقِ يتكوّمُ بعض شـــيوخ القريةِ أمام دكان الســـنجك فيبادرهُ شيخ حميد والدهُ الروحي قائلاً:

علي وين يا سجم الله لا جاب عقابك!!

منصور في لؤم: ماشي أفسِّح الحمار ده شوية.

فيرد ود عدلان: تفسحه وين؟؟ سايقُه جنينة الحيوانات؟؟

حميد: يا منصور والله الشكوى كِترت منك ومن فعايلك، يا زول أنت مالك ومال حريم الناس؟؟؟؟؟

منصور: يابا أنا الحريم ما عملت ليهن حاجة.

حميد: والسارة بت حاج الزين القال ليك تشاغلها منو؟

منصور: الرسول آآآآبوي حميد السارة دي عليك الله شيخ الجامع ذاتُه ما عندُه فوقها رأي ؟

حميد: الله يجازيك يا المسخوت عليكم النبي شوفوا منزوع البركة دة! كان يوم أسود الشفتك فيه!

السـنجك: هو عليك النبي أنت ودوك الأزهر للقراية واللا في شان تجيب النصيبة دي معاك؟

لم يعبأ سامبسـون بمـا يتفوّه به الرجـال أكثر من ذلك بل طعنت حوافر حماره المكادي القصير قلب الطريق. ودار فكره ولولب حول ماضيـه وجذوره وعن كيفية حضوره من (بلادٍ تموت من البرد حيتانها) إلي صحارٍ لولا مضاجعة النيل لنخيلها لمـا تمراً عرفنا ولا خمراً!. هو أشـبه بنموذج اللامنتمي العبثي في نصوصِ سارتر لا ينتمي لحضارةٍ ود الريح إلا بنصفِ وعيهِ فقط! ولكنـه يعيش حيث كانت حبيبتـه الأولي ريتا التي لا ينسـي تفاصيلها الطازجة مطلقاً. ولكنه الفقر هو الذي انتزعه من صدرها البريء. لهذا تجده يسـخط علي كل شـيء، نعم هو الذي اختار صحبة شيخ حميد إلي جنوب الوادي، ولكنه لـم يكن يعلم بـأن تطول الرحلة إلي هـذا القدر!. تفتحت زهرة شـبابه وهي تحاول أن تدرأ عنها رياح الهبباي ولسـعات أمشير السـاخنة. تبدّلت ملامح الشخوص والجغرافيا والمناخ في ناظريه.

طاقته كانت رهينةً بتفجيرِ بركانِ الجنسِ بداخلهِ. فلم يكن

يقـــدر – نادراً – أن يتحرك إلي المزرعةِ في الفجريةِ إلا بعد أن يتســـلّل إلي دار دهب الحلبية بعد صـــلاة الفجر، تلك الصبية غجرية العينين شـــهوانية النظـــرات. وكان أن وجدها أول مرة مـــع مملوك حاج حميد فِتيح في حقل القصب متلبِّســـة بالجرم المشـــهود. فِتيح كان صديقه الأول يشاركه كسرة السخط علي الأقـــدار وميلودرامية الحياة الرتيبة في القرية. الأول كان ناقماً من مجتمـــع يتعمد إقصاءه من أجندة اهتماماته إلا في صغائرِ الأمورِ. وسامبســـون كانت جزوره تحِنُّ إلي لحظةِ إسقاطه من قبضةِ هذه البساطة الموازية للبدائية والطموح المحدود، فقد كان يحسُّ في قرارةِ نفسهِ بشيء يجذبه إلي هذا المخلوق الأبنوسي فِتيح، ولكـــن بحذر. هذه الغريزة أوجدهـــا التناقض الجيني الشاســـع بين الشـــخصيتين. ولكنها كانت تفقد مغنطيسيـــتها بفعـــلِ صرامةِ حاج حميد الفيزيائية، الـــذي كان يردعهُ كلما حاول الاقتراب من فتيح أكثر مما ينبغي.

وحدث في أحد الأيام والشمس تقتلع ذرات الماء اقتلاعاً من نهر النيل، وتقدمه قرباناً للغيم المخادع. كان منصور يحاول أن يربط حماره المكادي في شجرة الدوم العجوز، فسمع صراخاً مثيـــراً في حقل الذرة القريـــب، وعندما تحقق من الأمر وجد فِتيح باركـــاً فوق دهب الحلبية وهو يفترســـها بلا رحمة. فيما

كانت هي تصرخ لضيقِ ذاتِ الفــرج! وبعدها أصبحت واحدةً من رعاياهِ وأول فتوحاته الجنسية المتعددة!

ثوراتهُ علي النساء تمثلت في شكلِ غاراتٍ ليليةٍ متعدّدة! كأنه كان ينتقم من مجتمع ود الريح! . المجتمع الذي فتح له صدره برحابةٍ، وكأنه هو الذي حرمه من حبيبته الأولي ريتـــا، ومن أمهِ ووالدهِ المقامرِ السّــكّير المُثقل بالديون. ريتــا التي لا ينسي تفاصيلها أبداً.

قرية ود الريح شـــأنها شـــأن كل القري السودانية، تمانعُ في استســـلامٍ للتواصلِ مع الغريب، وتتوجّس خيفةً حين تقتربُ بفطرة فضوليةٍ! . والنســـاء النصف الآخر هن الأكثر فضوليةً، فلـــم تتعب كثيراً الجودلية أرملـــة الفكي أب رايات في اقتحام العبابِ الإنجليزي، ولـــم تخش ضبابية موانيه ولكنها اختارت طوعـــاً الإبحار في أعماقهِ. لقد أصابها سامبسون بدوارِ البحرِ في أولِ لقاءٍ معه، ولكنها تشـــبّـثت بكثيف شعرِ صدرهِ.

كانت مجنونة اســـتبدّ بها الشبق حتي كادت أن تنهك خيول الإنجليز، ولم تعد تســـتطع أن تتذكر مـــن زوجها الراحل إلا إبريقـــه النحاســـي وســـجادته العتيقة. وفي الخاطر ريتـــا بكلِ تفاصيلها النديّة. ولكن هل يا تُري كانت معاركه علي صدور النســـاء من أجل أن يثأر لمسز روبنســـون الأم البديل؟ أو جين

مورس أو إيزابيلا سيمور أو شيلا جرينيود أو آن همند؟؟. هل تراه قادماً فقط ليثأر من مصطفي سعيد الذي غزا أوروبا جنسياً وحطّم ما حطّم من أفخاذ وأفئدة وصدور، علي حسب ما قرأت في رائعة الطيب صالح موسم الهجرة إلي الشمال؟؟

أيخال أن ما تبقي من أشلاءِ الماضي في ذاكرتهِ الجريحة أجدر وأوجب للمحافظة عليه من حاضرٍ مبعثرٍ أحق بالمناهضةِ والإدانة؟؟

إنها ليست غلطة التاريخ ولا حماقة جغرافية، ولكنها أقرب ما تكون إلي تفاهةٍ عبثيةٍ وطئت ضمير الزمان وداست علي كبدِ الأمكنة. الزمن يحتاج إلي أكثر من الأسمنتِ ليبني ضميراً! والعقد الدفينة في ضمير البني آدم تتناسل أحقاداً وتتبوّل ضغائن، بالرغم من أن الذاكرة الباذخة تنضح بريتا وتفاصيلها الثرية. أو ما كنت أخاله.

شيخ حميد ينادي علي فتيح وهو شبه منبطح في تعريشةٍ من الحصير، ووقت صلاة المغرب لم يتبق منه مثقال ركعة.

- يا شقي امِش لي ستّك جوّة خلّها اجّهز الغداء.

كعادةِ أهلِ الريف يعودون من المزارع وبعدها يتناولون وجبة الغداء بعد صلاة المغرب.

وبعد أن عاد فتيح من الداخل وأحضر ما طلبه الحاج، قفل

مســـرعاً لا يلوي علي شيء، متبوعِ بسخطِ ولعناتِ العجوزِ، بعد أن تأخر عليه كثيراً حتي انتهائه من صلاة العشاء.

أنهي سامبســـون تسكعه في أرجاءِ القريةِ بغير هدفٍ واضحٍ حتي سمع صوت مألوف يستوقفه:

- يا زول أنت وين أنا من الصباح كايسك؟؟

اســـتدار الرجل ليجد الكلام ينهمرُ هميماً من لســـانِ فِتيح الذي حكي له القصة كاملة.

عرفة!!؟ بت الشيخ؟؟

أين؟؟ ومتي؟؟ ولماذا؟؟ وكيف؟؟؟ وهل؟؟!!

ولكن لماذ ترســـل له فِتيح؟؟ وكيف حُلّت عقدة لســـانها؟؟ ولماذا تختاره هو بالتحديد؟؟

مهمـــا كانت الملامح التي يحملهـــا، والدم الذي يجري في عروقه، ولكن شيخ حميد هو بمثابةِ والدهِ الروحي. إنه يشعرُ بميولِهـــا تجاهه منذ أن حاولت غوايته نهارئذٍ وهي تســـبحُ مع مجموعـــةٍ من الفتيات الصغيرات في النيل. لم يدر ســـاعتها أنها كانت تســـتحم بالماء أم أن الماء يستحم بعرقها. أحس بها حين اقتربت قليلاً وطازج نهدها يزيح عنه الماء ويكتفي بالرذاذ والجلباب!

طاردته بعينيها وجســـدها وكشفت له عن ساقيها الممتلئتين.

حتي تبيّن له هزيل الشعر فيهما..!

ولكـــن الليلة!!! وفي بيت من؟؟. الجودلية؟. تلك القوادة البذيئة!!.

دارت في رأســـهِ الهواجس واحتار في أمره، هل يلبي نداء الجسد أم يستجيب لصوت الضمير؟؟ ولكنه في الآخر قرر أن يحسم الأمر تماماً.

أخذ القمر يتمشّـــي بصعوبة في طرقات الغيم، فيما خلت الشـــوارع إلا من نباحِ كلابٍ وهطرقات الســـكاري ورقصهم علي أوتار طمبور بائسٍ. اكتفت الكلاب بوميضِ زمجرةٍ ولم تشتعلْ نباحاً، فهي حتي الآن لا تعترف به ولكنها مجبرة علي القبولِ بمواطنتهِ!

بيت الجودليةِ يقع في أطرافِ المكان، هادئ وموحش. أخذ سامبســـون يتلفّت حتي تسلق السور القصير إلي أن وجد نفسه في باحة الدار، وفِتيح يراقبه من بعيدٍ بخباثةِ العالم كلهِ.

الجودلية بثوبها القصير الفاتن يكتظُّ جسدها اللادَن بالعذوبة والثراء، فيما تثرثرُ عيناها الموستان بفاجرِ اللغات. كانت أشبه بلوليتا الغانية الشـــهيرة كيفاً ومضمونـــاً. أما الصبية عرفة فلم تكن أقل من أزميرالدا في حكاية أحدب نوتردام.

تلك العينان الثريتان الجميلتان، والســـراج الشحيح يمانع في

إدرارِ ضوئه ليترك المكان بين بين. كل هذا وسامبسون يتأرجحُ بــين ميزان الضمير والوعي. فبدت اللحظة ثقيلة ورتيبة تارةً، وطائشة ومنفلتة في بعض تفاصيلها العبثية الأخري، والصورة ظهــرت مهزوزة تماماً مع ثبــاتِ الديكورِ والخلفية!. فحاولت الجوديلــة تلك القــوادة العاهرة تهيئة المكان ليمثل سامبســون مشــهدهُ الأول في مســرحِ الرجلِ الواحــد. فيظهر الارتباكُ والخجل في وجه عرفة صغَيــرة التَجربة، بنفسِ درجةِ صدقِ الملامح في وجه ريتــا التي لا ينس تفاصيلها الطَازجة مطلقاً!

يا لسخافة الأقدار التي أحالت وقلبت المواقف، ويا لحماقة الحياة!!

نعم إن كيدهــنّ عظيم، ولكن الأعظم مــن ذلك هو كيد الزمان.

وفجــأةً....! تنامي إلي ســمعِ ثلاثتهم بعض الضجيج الذي أخذ يعلو ويعلو إلي أن شعروا بَالقلق الشديد. الجودلية تلصّصت لاســتجلاءِ الأمــر. كانت الحلة بخيلهــا وخيالها خرجت مجتمعة يحملون العصي والسكاكين والسلاح، وبان مقصدهم! ولحظتها ركض الثلاثة نحو النيل وخوف الدنيا كله في وجوههم. وتعالت الصيحات المستنكرة تردِّد:

- أمسكوا الكافر ود الحرام، الكافر النجس!!

وفِتيح يراقبُ الموقف من بعيد وخبث العالم كله في وجهــه. وبلغ بعرفة التعب الشـــديد، وكذلك الجودلية، أما سامبسون فقـــد كان لا يفكر إلا في الخلاص والنجاة!! حتي ريتــا التي لاينس تفاصيلها الطازجة أبداً.

وفي الصباح تمدد سامبســـون والجودلية في شبه إغماءة علي الشاطئ الآخر، فيما ابتلع النيل عرفة. كعادة النيل في بلادي! لا يؤمن إلا بعقيدةِ القرابين.

الموت الهارب من الموت

لـــم تكن تلك البيوت الطينيـــة الهاربة من الموتِ، تحتاجُ لإنهـــاكِ حوائطها لمنافقـــةِ الحياةِ. الموتُ نفســـهُ كان يراوغ للتملّصِ من هذا الاعتقاد التاريخي بأنهُ هو آخر مشـــاوير الحياة!. هذا الشـــيء جعل تلك البيـــوت التي تتوكأ علي ســـيقانها الخشـــبية، وتدعو سقوفها للتشـــبُّثِ بالقليلِ من الإيمانِ دون التورّط في ســـجدةٍ قـــد تعني التآمر مع الموتِ ضدّ قوانينِ البقاء. المـــوت الهارب من الموت هو الوصف الأكثر حياداً لهذه القرية التي تخنقها الطبيعة حتي تكاد أن تزهق أنفاسها، ولكنها تتمسك ببقايا أكسجين تحبسهُ بغصّةٍ في رئتها التي أنهكها السّـــعال. فكانت تكحّ جدرانها كلما فاجأهـــا الغيم في غيرِ أوانهِ. فتجدها تعطس و تبصق ولا

تحمد الله. فتعجز (سـبـاليق) أسـقفها القديمة عن التبرّعِ لتلك الوديان المريضة بنقطةِ دم!.

هذه القرية التي كانت تشـتكي من إجحافِ السماء هي الآن تعاني من زيادةِ كرمها.

السـماء التي يمسّ ضرعها القحط في كثيرٍ من المواسـم وأحياناً لا تدرّ إلا بمقدار.

وعندما تحرق الرمضاء أرجُل هذه الأرض المتعبة وتتشقّق أقدامها اليابسة يلجأون إلي (طه الصلّاي). يطلق الأهالي علي رجلٍ منهم يدعي طه هذه الكُنية وهو لا يحفظ سورة واحدة من القرآن، فقط كان يتوضأ كيفما اتفق و يقول:

الصـلاة صلاتـك والواطة واطاتك، نقـع ونقوم علي جبلاتك، الله أكبر!!

كان هؤلاء الأهالي يلاقون في شظفِ البحثِ عن القوتِ مـا يغنيهم عن الصلاةِ فزهدوا فيهـا، وأعتادوا أن يوكلوا أمرها إلي طه الصلّاي!

كانوا يؤمنون بشيء من الله، وكل القدَر!

هكذا وجدوا أنفسـهم يفعلون إزاء العبادة. وكان الدين في نظرِ أعقلِ جهلائهم هو مجرّد ترف دهري، يمارسـون الحد الأدني منه في مواسمِ القحطِ والجفاف، فهم يستنفرون

طه الصلّاي إلـــي الصلاةِ عندما يحتاجون إلي الله في أمرٍ يتعلق بمعايشهم.

وعندمـــا تفلح الصلاة وينزل المطـــر يعتبرونها ظاهرة من الظواهـــرِ الخارقةِ ووثنية راتبة، ومن ثم يمضون غير آبهين. ليبدأوا في تكســـيرِ جدارِ العزلة الذي أقاموه مع الأرض. يعبثون ببقايا أنوثتها المترهلة ويتضرّعون لثديها البائس عسي أن يدرّ قليلاً من الحليب. وهي تتمهّل في مشيتها وتعرِج. وكأنها لا تدري بأن كل ما تبقّي من أنوثتها. بعضها!!.

وحتـــي عندما تخـــرج (حاجة مهَلة) وهـــي تصيح في وجوههم:

يا ناس الفرِيـــق، مرحبتين بالمطرة، يا ناس هووي أجِيدْ ليكم بالبلَل!

ولكن الأرض ما زالت تتمدّد في برود، كمومِسٍ اعتادت علي محاريثِ المخنثين الذين لا يشبعون رغباتها، لتنام آخر الليل مهدودة الحيل مثقلة بالرمال!

ولكـــن حاجة مهَلة بوجهٍ طفولي لا يتناســـب مع بذاءة لســـانها، ومؤخرتها العملاقة التي جعلت كل أهالي القرية يقدمونها علي ســـائرِ النساء خوفاً وطمعاً. فقد كانت امرأة واسعة الحيلة أورثت ابنها الوحيد ذات الطباع.

يا أولاد الهرمة، الليل كله قايمين وقاعدين فوق نسوانكم، قوموا تقوم قيامتكم!

فــكان هذا النــداء إيذاناً بتركِ المخــادع وصمت المعاول وبداية موسم الزراعة الخجول.

الأرض التي يأتيها طمث السماء متقطعاً ويفاجئها كأرملةٍ يائسة تخطّت سن الأربعين، وانشغلت عنها عيون الرجال. فتكتشف ذات أصيلٍ يشــتبك مع بقايا نهارٍ بائس أن المطر تقدّم لخطبتها!

فتحــاول عبثاً أن تصلح زينتها وتســكب علي شــعرها قارورة عطر، وتتناسي عمداً حقل الخصلات البيضاء الذي بدأ الإنبات في رأســها. ولكنها تتســرّع في وضع أخضر الشفاه وتغطي ضفائرها الميتة بباروكةِ سنابلِ اصطناَعية. يا للأرض المسكينة!! ألم تنقطع شهوتها بعداً!!

هل تراها ما زالت تفكر في رجلٍ ينسيها حرمانها ويصل معها إلي النشوةِ في نفسِ الوقت؟

فهذه البائســة تحتاجُ أكثر منا لزخّاتٍ تلبســها ســروالها الأخضر. تحتاجُ إلي غيمةٍ تسترُ عورتها وتبعد عنها سواعد الرمــال التي ترجُم ما تبقّي مــن فتنتها، كزانيةٍ محترفة!.

إنهــا تصحو متعبة هذا الصبــاح وهي تصعد علي درجاتِ

أنفاسها تلهثُ. تحاول أن تبسط كفيها لتشرب آخر ما تبقّي من سـيلِ جدولٍ ظامئ، بينما كانت الشمس تراقبها بصبرٍ نافد لتسرق القطرة الأخيرة المتبقّية من عطشها!

كانت البيوت الطينية الآيلة للصمود تنبعث من مواقدها القديمة رائحة حليب محترق، فيما بدا الفناء الشاسع الذي يغلفهُ مسحوق الرملِ الأبيض في شدّة النقاء. وكأن أحدهم قد تكفّل بغسـلِ جميع صحونهِ بعـد ليلة عرسٍ باذخة!. صغـار الماعز يظهـر أنها لا تصدق مـا حدث. فخرجت تتقافز وكأنها قد فقدت عقولها للتّو!! أما الأطفال المثقلين بعصيدةِ الصباح لم يتركوا شبراً واحداً دون أن يوقّعوا عليهِ بأقدامهم الحافية. ولكن (عوض ود مهَلة) فقد كان الوحيد الذي لم يغادر فراشـه. كان يرقد علي بطنهِ كمن يتربّص بهِ حلم جنسـي. فقد بدأ مستغرقاً في نقطةٍ ما. فلم يسمع نداء الغَيم ولم توقظه من سـكرتهِ المؤقتة إلاّ والدته الحاجة مهَلة. فجاءت تسبقُ مؤخرتها العملاقة وترتدي هذا الوجه الطفولي المرِح. وقالت:

قُوم يا ود الهرمة، النايم ليها شنو؟ تنوم فوقك حيطة.

فلم تتركهُ إلا بعد أن صحي من ثباتهِ تماماً، فنهض وهو يحاول أن يخترع سـباباً يلائم ما يحسّ بهِ من سخطٍ تجاه

والدته. ومع ذلك لم ينس أن يقرصها في مؤخرتها بخبثٍ واضح. فالعلاقة بين عوض وأمهِ لا أجد لها تسميةً تفكّكُ اشتباكاتها، بيد أني أطلق عليها العقوق المثالي!!

فعندمـــا تجدهُ يمازحها بأكثرِ الألفاظِ بذاءة لن تصدق أنها والدتهُ. بـــل وتزداد عجباً عندما تـــرد له الصاع صاعين. لذلك نهض عوض من فراشهِ وهو يتمطّي في كسلٍ واضح ويقول في استياء:

المرا أم صُلباً ماكِن دي مصحياني لي شنو هسة؟؟

ومع ذلك فهي ترفض تماماً أن يمســُـه أحد بســـوء، ولا تخشي فيهِ لومةِ لائم!

يبدو أن الهطول قد منح للموتِ إجازتهُ الســـنوية فأخذ يلملِـــم حقائبه الفارغـــة من الحياةِ علي مهـــل. لم ينتظر القطار القادم من الليل. ولكنهُ اســـتقل أول مركبة للصباح و لوّح للأرضِ من بعيد. حاول أن ينفق الوقت في تصفّح جريدتهِ المملوءة بالنعاة، ولم يشغل نفسه بصفحةِ الرياضةِ ولا الكلماتِ المتقاطعة، ولكنهُ انتقل مباشـــرةً إلي صفحة الوفيـــات، وكاتبه المفضل عزرائيل!!. ولكن وجد عمودهُ قـــد احتجب اليوم. لمَ؟؟. لا أحد يدري. مزّق الصحيفة وأخذ يهيمُ بنظرهِ إلي جانبي الطريق، فلم ير إلا مواســـم

خضراء. وحياة. لم يشاهد العَدَم وهو يلوِّحُ للعربةِ من بعيد ليشغِل المقعد الوحيد الخالي فيها. مضي الموتُ مبتعداً تاركاً الأرض الجامحة الشـهوي وهي تفتـحُ إزارها علي قارعةِ الطريق. ابتعد الموت ســاخطاً وغير راضٍ عن هذا العرس الذي كان يريدهُ أن يتحوّل إلي مقبرةٍ جماعيةٍ.

كانـت الأرضُ تحِنُّ إلي مراهقةٍ متأخرةٍ، فلم تصدق أن يأتيها هذ العريس الشـاب. فأخذت تكشـفُ عن صدرها وتتعمّدُ أن ترفعَ تنّورتها لتغويهِ في السرير. ما أشدّ فجورها حين يأتيها المطرُ جهراً ليمارس معها عادتهِ السريّة المعلنة!!. فتتظاهرُ وهي رمل بأنها مـن ذواتِ الطمِي. تُلقِي أنوثتها المربكة تحت إمرةِ المعاوِل والمحاريث التي تستسـلم لشبقها الموسمي. وتخترقها.

وتخترقها منذُ يقظة الشمس الأولي وحتي مطلع الأمر!! فنكتشفُ ذات صباح سنابل حملها. فالأرض أنثي تمارسُ الجنسَ جهـراً ولكنهـا لا تحمل إلا في السّـر. أما تلك البيوت الطينية الوديعة فقد كانت الشاهد الوحيد علي هذه العلاقة. ولكنها تتصنّع اللامبالاة. مع أنها كانت تسـرف في الزّينة وتتفنّن في اقتنـاءِ الأحذية ذات الكعب العالي، وكأنها مدعوةٌ لموعدٍ مـا!!. فتوصد الخوف خلفها وتترك

الباب مواربًا للأمل كدعوةٍ سريةٍ للحياة.

الحيــاةُ التي أصبحت لا تترفّعُ علي هذه البيوت، وتصرُّ أن تتوسّــد علي خرقِها البالية وتســخرُ مــن نعومةِ أفاعي الموت التي تخلع جلودها في كلِّ شروقٍ للأمل. أفاعٍ وأفاعٍ وفحيح.

الجياع عندما تصيبهم تخمة الحلم تختفي ضلوعهم التي كادت أن تخترقَ لحومهم فلا يعيرونَ الشــمسَ التي كانت تشــوِي خطواتهم أدنــي اهتمام. فتجدهم يتســكّعونَ في سجّادةِ العشــبِ النضير. بحب. بحياة. وأمل. يتناسونَ عقوقهم الذي مارســوهُ علي تلك الأرض المســكينة فتغفر لهم.

مسكينة يا أرض!!. مسكينة.

ولكن عوض ود مهَلة لا ينس أبداً عقوقهُ المثالي!!. أبداً أبداً.

كانت والدتهُ تشغل نفسها بتمشيطِ ضفائرِ حقلِ قمحِها، وهي تتــرنّمُ بأغنيــةٍ منقرضة، ولا يشــغلَ بالها إلا تلك الحشــائش الطفيلية التي تفسد تسريحته. فيما كانت حبّات القمح تطعنُ حلماتها غلائل السنابل الناهدة. حبات القمح التي كانت تحلم بالحصادِ وتفكر في المناجلِ التي ســتفضّ

عذرية هذه القمحات. السنابل وحدها وأغنية قديمة.

ليتسـلّل ابنها المخادع من خلفها ببـطءٍ وحذر؛ وفجأةً يهمزها في مؤخرتها.

(واااااااااك)..

تصـرخ الأم الملتاعة وتكاد تتكوّم علي الأرضِ مغشـياً عليهـا. ويرتمي هو الآخـر علي عيدانِ القمحِ من شـدّةِ الضحك. ترتمِي السـيدة البدينة علي ركامِ حشائشٍ كانت قد أجتثّت جذورها، وتحاول النهوض ومؤخرتها العملاقة تشدّها إلي ذاتِ الركام. عوض كادت تسيل دموعه ضحكاً، وهي تنفجرُ فيهِ سُباباً:

ينعل أُمك يا ود الهِرمة. ويا الفعلت ويا التّركت!!

وتحملُ منجلها وهي تطاردهُ وتشتمُ وتلعنُ:

أقيف يا ود الهرمة عشان الليلة أطهِّرك بالمنجل ده!!

تسـبُّ و تلعنُ وتشـتمُ. تجري، وتركـضُ.. فتلهثُ وتتعبُ. ومن ثم تهدأُ فتضحكُ وهي تقول لابنها:

الحمد لله أمّك ما لابسة سروال هسة كان بُلت فيه!!.

فتغلبها الأمومة؛ ويخمدُ بركانها، ويصبح أخلا من فؤادِ أمِّ موسـي ويراوغها الحلم من جديد ؛ ويُسـيِّج أفكارها بالحياة فتقول لابنها الوحيد:

عارف يا وليدي السنة دي بعد ما نبِيع قمحنا ده، أنا حالفة أعرّس ليك بدل ما تكمّل مُروّتك فوق بنات الناس.

ليغويـــهِ الحلم هو الآخر ويجد نفســـه برفقةِ بارقِ الأمل ويقول لها:

يُمّة أنا بنات الناس سوّيتلهِن شنو؟

أنت ياكا عوض ده واللا زول تاني؟؟

فقال لها وهو يمد لها كفهُ ليســاعدها علي النهوضِ من ركامِ الحشائش:

قُوَماكِي نمشِي الحِلّة يا مَرا يا أم صُلب ماكِن!

لا أكاد أن أعرفَ توقيتاً زمنياً محددّاً فالجغرافيا غبيةً جداً في درس التاريخ أحياناً.

الزمان والمكان بين بين؛ وكلاهما فاقد الذاكرة!.

التأريخُ عندمـــا لا يترك عطرهُ في الأرضِ ولا يعرق في مســـاحاتها ولا ينـــزف في طرقاتها تنســـاهُ الجغرافيا. وهو الآخر يملُّ ذكرها. فتضيعُ المواقف بين ركام الحيواتِ الرتيبة وأطلال الذاكرة المثقوبـــة. فهذه البيوت الطينية لم تجد من يرمي في إنائها الخالي عملةً معدنية تخون بها صمتها المُمِل! ولم تتعب من اللهاثِ وهي تحبو إلي قرصِ الشمسِ بأرجلٍ مبتورةٍ. لم تشـــنق نفسها علي أســـوارِ قصةٍ بطوليةٍ؛ ولاً

اغتالوها فــي متنِ قصيدة عصماء فيذكرها تاريخ الطُغاة!.
ولم تشهد براحاتها روايةً رومانسية لتبقي حديث العشاق!
ولكنهــا انتحرت منســيةً وهــي تحلم بــأن يخلّدها الموت الردىء!! فسقطت علي لسانِ درويش حين قال:

«فصرختُ: هذا الموت لا معني لهُ
عبثٌ وفوضي في الحواس
ولن أصدّقَ أنني قد مِتُّ موتاً كاملاً
فلربما أنا.. بين بين!!
وربما أنا ميّتٌ متقاعدٌ
يقضِي إجازته القصيرةَ في الحياة!»

وقبــل أن يغفو الموت من الموتِ؛ كانت الشــمسُ تعوِي وهي تحاول أن تُعمِل مخالِبها الصفراء في وجوهِ القوم؛ أما ســنابل القمح الذهبية التي كانت تلهثُ وتصرخُ كالدنانيرِ المتخشِّبة! بينما كانت الأرض تســتلقِي علي فِراشها وهي تحــاول أن ترضعَ صغارها الزّغب؛ حليــب صبرِها؛ فقد كانــوا يحصدون ثمار صبرهم أيضاً. ما أحلي ثمار الصبر في أفواهِ قوم أضنتهم المرارات!!.

فبدأت السّنابلُ الخجولةُ تتعرّي أمامهم والمناجل تجزُّ حبالها الســرية في رفقٍ مربك. الحاجة مهَلة تحُثُّ إبنها الكســول

علي العمل وهي تحلمُ بالإنابةِ عنه. تحلمُ بهِ عريساً. كلهم كانــوا يحلمون ولكن بمقدارٍ وضيع، وكأنهم يقتصدونَ في الحلمِ. أو يدّخرونهُ ليأسٍ قادمٍ قد لًا يتأخر. لليأسِ حضور موازٍ للأمل. بالطبع.

وكادت الشــمس أن ترحل وهم يســترونَ عُري السنابلِ الخجولةِ في أكياسٍ من الخيش. وقبل أن ينتهوا أشــاحت الشــمس وجهها في حياء؛ فهي لا تكشــفُ وجهها أمام ليلٍ غريب! وأظنهم كانــوا ينتظرونَ رحيلها؛ فالقمر أكثر جرأةً في المســاء، ودائماً ما يبدو أكثر خجلاً طوال ساعات النهار. حد الاختفاء. بالطبع بالطبع.

الليل والليل. يا ليل. من أنت يا من يفتر ثغرك الأسود عن ابتســامةٍ بيضاء؟؟ من؟؟. قُــل. الآن. يا ليل يجب أن لا تنتظر حتــي الصباح. الصباح لا يعرفك أصلاً. ثق بي.

فقد كان يعني لهم هذا الليل الحياة والاحتفال. الاحتفال الذي أعدّوا لهُ ما اســتطاعوا من خمــرةٍ ومن غناءِ الليل. فكانت الأواني الفخارية مملوءة (بالمريسة) من غالبِ خمورِ أهلِ تلك البلدة. بدأت الأقدام تُحشرِجُ في الطرقات وهي تلِــحُّ علي تلك البيوت الطينية لكي تقبض أرواحها، ومن

ثـــم تعيد بعثهـــا وإحياءها في ســـاحاتِ القرية. واعية إلا من سُـــكر. موتي عنيدون. متعبون. يستجمّونَ برقصةٍ. فترتجِل الأحلام التي لا يغلبها النعاس، وترمُق الليل بشوقٍ طائشٍ ولا ترنو لما بعدهِ. هـــذه البيوت الطينية المتعبة التي تولدُ بصمتٍ وتموت بصمتٍ أهوج؛ الآن سترقص رقصتها الســـنوية. سترقصُ الآن؛ وتفنِي نفســـها باقي الشهورِ في التكفيـــرِ عن إثم رقصتِها الواحدة!!. وهذه الأحلام المُلقاة علي رصيفِ قطارَ مســـرع؛ من سيروّضَ محطاتها ويرغمها علي التوقّف؟ إنها الحياة فقط. ربما. ربما.

يتلفّت الليل بعيونهِ الأربع. فلا يلمح إلا نُجيمات تائهات قرّرنَ تبديدَ ما علِق بعيونهِنّ من بريقٍ في بلاطِ القمر! يبدو أن القمر لا يكتم ســـرّاً للمســـاء. هذا ما أخبرني به الليل حين صباح!!

فقد كان يفضح بحضورهِ بعضَ عشـــاقٍ حاولوا الاختباء خلـــف قبلة. فيعانقهم بضوءه ويدعو الناس ليتحرّوا هلالَ قبلاتهم المســـروقة. ليتهم كانوا يعلمونَ أن القمرَ لا يكتم السر ليفقأونَ عيونهُ

ولكن هذا قدرٌ لا تثريبَ عليهِ ولا يفعل إلا ما تُملِيهُ عليهِ الحياة.

الحياةُ التي تُنِيخ رحالها الآن في هذه البيوت الطينية هل كانت مأمورة؟

إنهـــا تترك آثـــار أقدامها علي هذه الوجوهِ السّـــمر حتي تكاد أن تلثم دبيبَ خطواتها بلا وعي إلا إدراكَ أن المواسم تراقبهـــم من بعيد فتحـــرِص علي إًفنائهـــم. مثلما تجتهد لتمنحهم لقمة الأمل.

الكؤوسُ المصنوعةُ من نباتِ (القرع) كانت تكتمُ أنفاسها وتغطِس في أوانِي الشراب الفخارية، و الأفواه التي تُصفِّقُ إعجاباً لما جادت بهِ قريحة السنابل تغرِفُ ما أستطاعت من المرِيسة!.

فلم تقترح نخباً إلا للغناء!.

عوض ود مهَلة انتبذ بكأســـهِ مكانـــاً قصيّاً وهو يحاول غواية إحدي الفتيات التي انشغلت عنهُ بأغنية. بينما كانت والدتهُ تستعرضُ مهارة مؤخرتها العملاقة في الرقص!

أمـــا الأرضِ فقد توسّـــدت حزمةً من عيـــدانِ القمح، واحتضنت ما أُلقِي في فراشها من فُتاتِ الليلِ واستسلمت للنعاس، فهي لم يغمض لها جفن شِـــبرٍ منها زُهاءَ خريفٍ كاملٍ.

نامـــت وحيدةً مثل قطعة ثلجٍ حلّت ضيفةً علي مِرجلٍ.

انصهرت في إناء المســاء ونامت تتقلّبُ علي ركامِ كبواتها وتهذِي.

يا صاحب الحلم الفســيح. أنت سعيدٌ ولكنك لا تعلم! ســتظلُّ تجهدَ نفســكَ وتمكُر علي الموت وهو يناورُ ليمرِّرَ جميع ألاعيبك وأكاذيبك المفخّخة. ســيتركك تعتقد بأنك قد نجحت في تهريبِ الحياةِ عبر حدودهِ. ولكن ســريعاً ما تجدَ نفســكَ في زنزانةٍ انفراديةٍ للموتي، بتهمةِ العبورِ إلي الحيــاةِ بدون أوراقٍ ثبوتية. وعندهــا لن يتبرّع أحد للدفاعِ عنك. ســيتركونكَ تتعفّنُ وحيداً في قبرٍ منفرِدٍ!!. ستلوّحَ لك الحياةُ من بعيد ساخرة؛ وهي ترمي علي صمتِك الأخيرِ زهرةٍ وجدوها للتّوِ تحت عجلاتِ قطارٍ مســرع. يجدُر بِك أيها الميّت مسبقاً أن تفخرَ بفخامةِ القبرِ الذي حُظيت بهِ!

فغيــرك يموتونَ عُــراةً إلا من أنيابِ الكلابِ التي تســترُ بجوعِهــا لحومهم المُتخثِّــرة، وتتركُ تذكاراً مــن هياكِلِهم العظميةِ في كلِّ شارع خلفي. غيرك يموتون دون أن يدروا! ودونَ أن يخبرهم أحدٌ بأســبابِ الوفاة! فلا تنتظر يا رفيقي الموتَ مطلقاً؛ فقط حزّم حقائبك و تخيّر قطاراً آخر ستجدهُ في المحطةِ القادمــة!. ارقُص وغنِّ كما تفعل الحاجّة مهَلة وهي تتشــبّثُ بأطرافِ عمرِها وتُخبِــرُ كل البيوت الطينية

الآيلة للخلود لكي تحلم بنافذةٍ جديدةٍ، ودورٍ ثان وشرفاتٍ تطلُّ علي النيل.

تأمــرُ كل البيوت بأن تتناســي آلام مفاصلها وعجزها؛ وتدعوها لكي تتنــاولَ قُرصاً مهدئاً يشــفيها من صداعِها النِّصفي الذي كاد أن يهدِمَ رؤوس أسقُفها القديمةَ!

ألم تذهب الأرض من قبل إلي طبيبِ العُقم ليســاعدها في إنجابِ سُنبلة؟

هل اســتحت الغيمة ورفضت أن تدخــل عيادة طبيب المسالكِ البولية؟؟

أيتهــا البيوت الهرِمة! لا يجــب أن تتعكّزِي علي ماضٍ تولّي.

بل ينبغِي أن تُقوِّي عضلات أســوارِك؛ وتفردِي صدرِك كغابةِ أســمنتٍ مسلّح تناطحُ هامات المآذِن و تداعبُ مفاتن الغيمة البِكر!!. نعم نعم.

ارقصي يا بيوت. الحاجّة مهَلة أيضاً سترقُص. وستحلم بابنها عروساً.

املأي شقوقك التي تعنكَبت ممراتها وباضت فيها حمائِم البؤس.

ارقُصــي يا بيوت ولا تحنِي هامةَ صمودك واقترحي نخباً

للبناءِ!!. للمستقبل.

لم تسكرِي بعد. ولكن حُوار الغيمة مع نصفِ قمرٍ صوّرَ لكِ هذا. ربما. ومع ذلك بدأ مفعُول المرِيسـَة يسـرِي في الأوصال وانقطعت الحياة عن العيونِ الثّملة.

السُكرُ الشديدُ يؤدِّي إلي وعي أكثرَ حِدةً، أو يُفضِي إلي هـزالٍ روحي كان يكمُن في ثنايا النشـوي المؤقتة. أغلب السكاري يزعمون هذا الشيء. أصدقهم أحياناً.

آثرت الخطوات المُترنِّحة أن تعودَ إلي جحورِها.

أما الليل فقد كان يزوِي سريعاً و يفكّر في الانتحار.

الليلُ يتقلّبُ بفُجائيةٍ مُفرِطةٌ بين الطفولةِ والشـيخوخة. أحيانـاً يمر عجولاً علي عشـاقٍ أرادوا أن يتدثّروا بصمته، وأحياناً يتلكأ علي مريضٍ تهـرُس عظامهُ الحُمّي. بالرغم من أن عقاربَ السـاعة لا تُبدِّل مواقفَهـا ولا تُغيِّر رأيها، ولكننا نحسـب عُمر الليل كما لا نشتهِي، وهو الآخر لا يأبـه لنذواتِنا ولا يرأف بنا. يتظاهـرُ بالموتِ حتي يفاجأنا بصفعةٍ أخري علي مؤخرةِ الشمسِ.

الشمسُ التي لم يشهد أحد ابتسامتها الفاترة هذا الصباح. لا الأرض التي كانت تتوسّـد عيـدانَ القمحَ وتتكئُ علي جدارِ رقدتِها الموسـمية. ولا البيوت الطينية التي كان يطِنُّ

في رءوسِها الذباب ولا تجد من يهشّهُ لها.

أما الوجوهَ السُّمر فلم يفتح لها قُرص الشمس ما أوصدَ من نوافذ فغرِقت في مُوات عميق.

استفاقت الأرض من توهُّمها للموتِ.

بدا الدُّخانُ يتصاعدُ مــن مداخِنِ البيوتِ وعثرت أباريق الشـــاي علي ما يروِي ظمأها ريثما ينضجُ الحليب. خيوط الشـــمس تحِيكُ ثقوبَ البيوت الطينية المُمزّقة وترتاحُ قليلاً في رءوس الأشجارِ. ويمتطِي النهارُ فرساً عربيّةً من الضوءِ لا تحـــرنُ إلا في المَغيب. فرسٌ تنثـُـر صهيلها هنا وهناك ولا تهـــدأُ إلا بعد أن تطعنَ بحوافِرها مضمار الســـاعات. حتـــي يأتي الليلُ بلجامهِ الأســـودِ ليُعِيدها إلي الإســـطبلِ ويرمي لها بحزمةِ برســـيم! فتعودُ تلك البيوت إلي حزنها القديم؛ لا تُهدهِدُ خواطرها إلا أضواء المصابيحِ التي تعملُ بالكِيروسين؛ تلك المصابيح التي يتسرّبُ منها شَحيح الضوء بحذرٍ لاتفهمهُ حشـــرات الليـــل. ولكنها تطِنُّ وهيَ تتفرّجُ علي احتراقِ الشريطِ القُطني المُبلّل بالوقود. الليلُ الموحِشُ إلا من سُمّارٍ يتحلّقون حول المذياع الوحيدِ في القرية الذي يملكهُ (عدلان) صاحب المتجر القَديم والطاحُون.

ذلك المذياع الذي يهمِدُ صوتهُ بعد أن تعتلَ صحة حجارة

بطاريته فيقــومُ عدلان البخيل بعضِّها بأســنان بُخلِه حتي تدُبُّ فيها العافية مرةً أخري، والسـمّار لا يملّونَ الجَلوسَ في الأرضِ الحافية وكأنهم ينتعلونَ من حفاءِ رمالِها ما يُبعِد خطواتهم عن رمضاءِ معاناتِهم. فتجدهم يصفّقونَ بحماسة مع أغنيةٍ، ومن ثم تهدأُ حركتهم تماماً وهم يســتمعونَ إلي نشــرةِ الأنباء؛ وعندما تنتهي يســألونّ أكثرهم استِنارةً عن آخرِ الأخبار!!.

يحفلــونَ بأخبارِ الموتي التي تبثهــا الإذاعة أكثر من أيِّ شــيء آخر؛ وكأنهم في خصام مع الحياة! فيثقلون ظهور الحمير و الدواب والمراكب ليســلّوا أنفسهم بالعزاءِ والبكاءِ علي ميّتٍ ســيئِ الحظ. تكِيلُ النساءُ الترابَ علي رءوسهِنَ وهنَ يســقِينَ بدموعهِنَ مســاحات من النفاقِ الاجتماعي الإجباري. أمــا الرجال فينفقونَ جُلّ الوقت في احتســاءِ الشــاي والقهوة، ويطِلّونَ علي الموتِ من نافذةٍ أضيق من البابِ الذي ولجوا من خلالهِ إلي الحياة. تتّسِعُ تلك النافذة أحياناً فيخلّدونــهُ؛ ويهربونَ من أمامِهِ إذا كمُن لهم مُوارباً رهبته الجميلة.

أما الحياةُ فهي لا تخشي الموتَ مُطلقاً ؛ ولكن الموت هو الذي يرتجِفُ رُعباً من الحياة. الأشجارُ كثيراً ما تنمو وسط

المقابـــر الجماعِية، ولكن لم يحدث أبـــداً أن انتحرَ غصن شجرة في مساحةٍ للحياة!!. لم يحدث ولن!!.

أحاسيس أكثر بؤســـاً من تلكِ البيوتِ الطينية، لا تنبُش أرض الذاكـــرة مثل دجاجةٍ لا تَبيضُ أسـئلة ولا تطاردها ديوك الأفكار!. تحفِرُ بمناقيرها في الأرضِ ســـعياً وراءَ حبّة قمح مدفونة. ولكن الأهالي عندما يعثرونَ علي مســـاحةٍ للفرحِ يرقصونَ لها، وقبل أن تصل المخازن الزاخرة بالقمحِ إلي منتصفِها.

تمّ الآن زواج عوض ود مهَلة.

فعندما تري أهالي القرية البائسة وهم يمرحونَ في طُرقاتِها، تكادَ تتصوّرُ بأنهُ قد أصابهُم مسٌّ من جنونِ المدنية.

انشـــغل الرجالُ بخمرِهِم وطنابيرهم. أما النساء فوجدنّ في إعدادِ الطعام ما يشغلهن قليلاً عن عبثِ رجالهِن. كانوا وبيوتهم الطينية ترهنُ بؤسها لدي لحظةِ حزنٍ ماكِرةٍ مُرابِية، ترشِـــيهم بابتســـامتِها العابرة فيقرِضونها حلمهم ويتناسونَ عمداً أن دفاتر الأيام لا تنسي أسماء مديونِيها!

ولكنهـــم كانوا يســـتحلِبونَ من مراراتِ الحيـــاةِ ما تخثّرَ من حليبِها الذي لن يأتيهـــم منها دون أن تدُرّ عليهم معِيزَ أحلامهم ما يكفيهم إملاقَ المستقبل.!!.

فكانــت قوّتهم تكمُنُ في لامبالاتهم! لا يهتمون لدرجةِ أنهم لا يقُولون (طُظ) لأي شيء ولكنهم يمضون غير آبهين! كانت فرحتهم هــي أكثر ما يميطُ اللثام عن جروحهم التي لم تترك شبراً في جسدهم؛ ولكنهم في الآخرِ ينفُقون كما الشِّــياهِ بلا حُلم؛ في ذاتِ الحياةِ التي لم تتعوّد تقليمَ أظافر بؤسِــها؛ وإن كانت تتجمّل أحياناً ببعــضِ الطِلاء!. هي الحياة.

تُفخِّــخُ برائحتهــا النفّاذةِ نظــراتِ المهووســين بأنامِلها وتخدعهم بملمســها الحريري. فيكتشفون تشــقُّقَ قدميها في الســرير وهم يضاجعونها علي مضضٍ. من قبِيل أداء الواجب!.

وعندهــا يأتي حملها دائماً متأخراً مشــوّهاً لأنهُ يتكوّن خارجَ الرّحم و يفتقِر إلي الشرعية. ولكن اللحظات الجميلة لا تشِي عما بداخلها من بؤس.

فلم أستعجِب حين تواري الموت خلفَ رقصة؛ وأنا أقومُ بشــيٍّ حزني علي جمرِ ابتســامةٍ مُضلّلة. فلم يكُن زواج عوض مهَلة ســوي حالة من حالاتِ الهروبِ الجماعي من الموت. فاســتعدّت الملامح للنزوح إلي قُري رِضاها الآمنة غير مبالية بما قد تتعرّض لَه من إطَلاقِ نارٍ ما!

ولكنها أناخــت رحالها وخيّمت لتتوسّــد ما تبعثر من براحاتِ الحُلم.

فأحكمت هذه المســاحةُ المفترضة قبضتها عليهِم فعاشوا فيهــا بغفلةٍ وجرأة الذي لم يرَ فوّهة البندقية المسـدّدة إلي رأســهِ وكأنهم كانوا يعلمون بأن الجُبنَ يتعثّر في محاولاتهِ المتكرّرة للفرار!!.

ابتسمت تلك البيوت الطينية في هذا اليوم ما استطاعت. الأرضُ التي تنــامُ علي عيدانِ القمــحِ المرضوضةِ اهتزت ورَقصت.

أما الحاجّة مهَلة فقد تقدمت مؤخرتها جوقة الراقصين، ولكن تجدها أحياناً قد ذهبت لتســتوثق من إكرام ضيوفها المبعثرين في أنحاءِ المكان. الرقصُ نفسهُ كان يأخذ أشكالاً فلكلوريــةً بدائيةً لدرجةِ أنهُ يبدو وهو مُمسِــكاً بخطامِ هذه البيوت التي تمايلت منقادةً لرسنِهِ غير المرئي!.

العيــونُ التــي تمدُّ أطرافهــا المبتورة من أجلِ الإمســاكِ ببصيص من الرؤي تصارعُ لكي تعابثَ بها أعضاءَ التحديق في لا شــيء. تُصارعُ لكي تشاهدَ فُتاتَ المشاهد التي تعلقُ بشبكيّتِها التي تتوقُ إلي لحظةِ إبصارٍ حقيقي!.

تُحاولُ إحداثَ ثورة بصرية لا تخمدُ أوارها قوانين الظلام

التي تغُضُّ طرفها وتتدّعِي العماء إزاء بعض المشـاهد التي تحاولُ غواية قدرتها الإبصارية الثاقبة!!

الإنسـانُ يجـب أن لا يفقِـد القـدرة علـي أن يكونَ مُغفلاً!!!

في الواقع هو مغفلٌ في الأصل.

حين يكونُ الاعتمادُ علي القُوي العقليةِ محاولة للموتِ سـخفاً، يجب أن يفقأ عيونهُ حتي لا تشاهد هذه المؤامرة التفكِيرية. هذه المسـاحةُ التي يطلـق عليها المُخ مصطلح التفاهات الذِّهنية!!

ألهذا لا تشغِل دماغك إلا بالأفكارِ البائسةِ دائما؟؟؟

الموتُ نفسـهُ لا يعبأ بهذه الطريقةِ في الحياة، ولكنهُ يُرتِّلُ في صمتٍ ما تيسّرَ من عبثِ المقابِرِ التي تجرحُ آياتَ موتاها كبرياء الحياة. فتتدحرجُ فارغة علي ألسِـنةِ النُّعاةِ وتشـغِلُ بضجيجِها المُوحِشِ ما تبقّي من خُوائها!.

لا أدري لماذا تسـتأنِف تلك الأحاسيس إطلاق النار في داخلي حتي بعد توقيع الهُدنة؟

فأنا القادمُ توّاً من أصقاع وسواسـي هل يجب أن أشعر بذلك النوعِ من الارتيابِ الّذي أثِقُ في قُدرتِهِ علي تدميري ذاتياً؟؟. هل؟؟؟.

ومعِ ذلــك أترك لهُ زمام المبادرة وأتنحّي جانباً مُفسِــحاً المجالَ لهذا الفتق الروحي لكــي يتمرّدَ علي كلِّ الخيوطِ. فمن يا تُري الذي ســيخيطُ جرح هذه البيوت الطينية بعد تهتُّكه؟. وهؤلاء البشر بأجسادِهِم الهزيلة. هل تقدر الحياة علي علاجِهم من هذا البُرودِ الجِيني؟.

لم يكُن سِوي عالماً يسعي ببطءٍ إلي الخلاصِ من الفجيعةِ. يتروّي. وكأنهُ يريدُ اســتبقاءها؛ شــأنهُ كشأنِ الذين أدمنوا رائحة الموت فهُم لا يشيِّدونَ قصورهم إلا في أطرافِ المقابر وعلي جُثثِ الموتــي. إنها دُنيا لا تتقيّــد بالقواعدِ القديمة للحياة. أبداً أبداً.

فعندمــا نجــد فيها يســوع المســيح كذلك نجــد يهوذا الأسخربوطي!

منتهي القســوة بالقدرِ الذي يجعل من الواحاتِ وصمةِ عارٍ في جبينِ الصحاري.

عالمٌ لا يريــد الاعتراف بالواحــاتِ التي أغدقت علي الصحاري بالماءِ!

وهكــذا انحدرت هــذه البيوت مرةً أخــري إلي مثواها المريرِ، وانحني ظهر حُلمها، فلم يعُد يجديها التعكُّزْ علي الأمل، ولا استبقاء الأماني.

عادت الأرض من جديدٍ كأرملةٍ انقطعت شهوتها وترهّل صدرها. لن تستطيع بأرجلها المشقّقة الخالية من الشهوة أن تتمكّن من غوايةِ أحدهم.

فعندما عاد الموت، عاد أيضاً الإحســـاس بفجيعتهِ؛ فلن يتقدّم عاشقٌ مجنونٌ لخطبةِ أرضٍ وهو يحملُ في يدهِ زهرة صبّارٍ!. لذا تركوها تقاســـي ويلات شيخوختها بلا أنيسٍ يشاركها وحدتها إلا عظام الحيوانات النافِقة ونباح الكلاب في الليالي الموحشـــة. كذلك البيـــوت الطينية باضت فيها حمامـــة القحط وحاصرتها الرمـــال من كلِ جانب. كانت الرمال كثيفة بالقدرِ الذي يجعل الســـابلة يكشفون عورات المنـــازل التي تبرّجت مداخلها بلا زينةٍ تُري. فعندما تهرُبُ الحيـــاة؛ لن يتبقّي إلا الموت ليلعب دورهُ العبثي الآخر بلؤمٍ لا تفهمهُ الحياة.

الحاجّـــة مهَلة التي نســـجَ عنكبوت المحـــل خيوطهُ علي رأســـها، وتقاصرت خطواتها ولم يطُل إلا لسانها البذىء؛ أما مؤخرتها فقد كانت تخبو شـــيئاً فشيئاً بذوبانِ الشحوم. ففقدت مكانتها تلقائياً التي أسبغها عليها الأهالي البسطاء. أما ابنها عوض فقد تمكنت زوجهُ من تخريج دفعةٍ أخري من أطفـــالٍ لم يتذوّقوا طعم الحُلمْ أبداً. وُلِدوا وهمٍ لا يعرفون

لماذا أتوا؟ لا يعرفــون لمن يمدُّون أصابع الاتهام للحياة؟ أم للموتِ الهاربُ من الموت؟.

طــه الصلّاي كان هو الوحيد الذي لم يفقدْ مكانتهُ، ولا يزال يردّدُ:

الصــلاة صلاتــك والواطــة واطاتك نقــع ونقوم علي جبلاتك!!

كان يؤمنُ بشــيء من الله ولكن لــم تُفلِحْ الصلاة هذه المرّة.

مُومِس في حلقة الذكر

يرتفــع إيقاع الدفوف والطبول تصطــرعُ النوبات. كان مســتوي الضجيج أكثر من إحتمالِ طبلةِ الأُذن، لم تذرف عينــاي دمعــةً، ولكنهما اشــتهين أن يبحــن بلوعــاتهن. ســحائبُ البخور، ســتاراتٌ ســتاراتُ. وســتائرُ الغبار، سحاباتٌ ســحاباتُ!!!. وبين هذا وذاك غلالةٌ من الوجدِ الصوفي الشــفيف. هميم المدائــح والأذكار يعبئ المكان ويتناثر في كل المساحات، ونثارُ أضواء التّقابة يلثُمُ الوجوهَ في قدسيــّة، ويُدنِّسُ ما دون ذلك.

يتحزّم الحيران في شبهِ دائرةٍ، تكتملُ أحياناً صوتاً وصورةً، وهم يــرددون (حي يا قيوم حي يا قيوم). وتتــآكلُ تلك الدائرة أحياناً حينما يفقدها أحد الدراويش قيمتها الهندسية

ويكســـبها مكانتها الروحية، فيدخل إلـــي المنتصفِ ويدورُ ويدورُ حول نفســـهِ حتي يســـقط علي الأرضِ ويرتفعُ في أعالي العشقِ الصوفي.

في المؤخرة النســوة يتكومن في غيرِ انتظام، بعضهن أتين من أجلِ الذكـــرِ. والأغلبية العظمي جاءت بهنَّ الفرجــة. الحُوار الضخم يمارسُ فحولته مع الطبلِ في فظاظةٍ، فيندسَّ فيك الإيقاعِ في لــذاذةٍ!! وتجدهُ مع أصوات الذاكرين مزيجاً من السحرِ والعذوبةِ والجمال. أما الطبل المسكين فقد كان مثلهُ مثلِ قمرية، تطربُ إذا ناحت وتفرحُ إذا لاحت، كان يئنُّ ويرنُّ، وشـــيخ الطريقة بجلبابهِ الأخضر الوسيع ورأسه الحافـــي إلا من وقار، كان يرجحِـــنُّ ويكتفي بنصفِ قوسِ يمنـــةٍ ويســـري ويمضغُ في فمـــهِ (حي قيوم حي قيوم حي قيوم).. ولا يكاد يبتلعَ هذه العلكـــةَ إلا وهو يلوكُ أخري ويردد في نشوةٍ (.. الله الله الله..)

انتقلـــت عدوي الضجيج مـــن طبلة الأذن إلـــي اليدينِ والرجلينِ والقرنيةِ والشبكيةِ! وترجمها اللسان إلي اصطراعٍ اصطفت فيهِ الحواسِ الخمس في خشـــوع تنشـــدُ الســـموَ الروحي.. وبدا المســـــيد أسطورياً وأسراب أدخنة المباخر تتحدُ مع الأنفاسِ الملتهبةِ في حميميـّةٍ، أما حلقة الذكر فقد

بدأت تتصاغرُ إلي حلقاتٍ صغيرةٍ مثل فقاعاتِ الصابون أو كحباتِ العقدِ المنثور. . .

يزداد إيقاع الطبول والدفوف، تظاهرة الألوان في جلابيبِ الدراويش تتفاعلُ مع الحالةِ الهيسـتيريةِ وتموجُ بالصخب، وتصرُّ نون النســوة علي احتلالِ موقعِها من الإطراب. . وتغــادرُ حالــة الســكون، وتدشــــنُ الأرداف والكتوف الاحتفاليــة بدون ضمــةّ أو شــدّة أو فتحـــة! ، أما تلك السيدة العجوز التي كانت تنظرُ شــذراً للفتاةِ الغريبةِ وهي تتمايــلُ في خلاعةٍ ومجون لا يتوافق مــع أجواء الحولــية والأذكار الصوفية. تلك العجوز كانت والدة الشــيخ، فيما حافظــت تلك الفتاة علي مســتوي مجونها والعجوزُ تتوكأُ علي صوفيتها وتستعين بها علي شيخوخةِ رجليها، وتسبُّ وتلعنُ الفتــاة التي كأنها ضلــت طريقها من بيت الزار إلي مسيدِ الصوفية. ربما.

لا يكاد يخلو بيت في الحي من الحديثِ عن هذه المومسِ الغريبةِ التي استأجرت لها نزلاً في القرية. ومنذ أن حطت رحالها شــغلت رجالها وأســفرت عن جمالها الذي شغل القوم عن كل شــيء فلا هم حصــدوا ولازرعوا! . كانت السيدة العجوز تسميها بالملعونةِ، أما شيوخ القرية فقد كانوا

يلقبونها بالشـــيطانة. فيما يصرُّ شباب القرية علي تسميتها (نوارة فريقنا) ولم ينقطعــوا عن زيارتها في أزمنة متأخرة زرافاتاً وغلمانا!!.

تخفُّ حدّة الإيقاع فيعودُ للمكانِ هدوؤه، ويســكنُ مثل النهرِ المقدس وسرعان ما يقوم الحوار الضخم بإلقـــاءِ حجرٍ في لجّــةِ الطبلِ ليتحوّل النهر إلي دوائــر صاخبةٍ ودوامات صوتيةٍ وحركيةٍ شــديدةِ الهـياجِ والصخب!. شيخُ الطريقةُ يــزرع المكان جيئةً ومهابة والثوبُ الأخضر ينهلُ الكأس تلو الكأس من عرقهِ الزلال، تخذلهُ الدموعُ تارة، فينصفهُ اللسان وهــو يردد... حي قيوم حي قيوم حي قيوم. وهنالك في القريبِ «شــيخٌ يرجحِــنٌّ يضربُ النّوبةَ ضرباً فتئِن وترِنّ»، أما الدراويش الغارقين في الســموِّ الروحي والولهِ الصوفي والســابحين في مذبحةِ الألوانِ الصارخــة! فقد بدوا مثل الصرعــي أو كأعجازِ نخلٍ لم تهــو ولكنها هوت وهامت وتسامت إلي علياءِ العشق!.. حي قيوم حي قيوم....

كان مــن الواضح أن هذا القمر لايــزال مراهقاً، !! ولم يبلغ ســن التوهج. ومع ذلك يتّسع مجال الرؤية ليفضح الأشكال والشــخوص ويعرّي جغرافية المسِيد. فهاهي نار التّقابة تكشـــرُ عن أضوائها وتلــوّح بالقرآن شــعلة من

الألق كلما ارتفعت عقيرة أحد الصبية وهو يحشو المسامع والعقول بحفنةٍ من الذِكرِ الحكيم. هؤلاء هم أهل الله، وأهل الحضرة، وهذا هو العشق، ومن داخل الصدور تبرز سطوة محاسن الوجد الصوفي الشفيف.

يرتفع إيقاع الطبول والدفوف. مستوي الضجيج يبدو مريحاً للحواس. لكم تجذبنا هذه الأجواء ولكم نتوقُ لمثل هذه الحياة، ، كلنا نعتقد فيها ونحبها ونحب أن يُحكي لنا عنها. أحدهم قص علي حكايةً أضحكتني كثيراً.

«يقال سُرِقت أغنام أحد أهل البدوان فذهب إلي شيخهِ كعادةِ الأهالي ووجد الحيران والدراويش في حلقة الذِكر يرتلون القرآن، وأخبر الشيخ بمشكلتهِ ولكنه رأي أنها قضية صغيرة ولا تحتاج لتدخلهِ المباشِر، فتضايق الرجل كثيراً حين أشار الشيخ لأحد الحيران وكان ضئيل الحجم وفي عينيهِ رمد من كثرةِ التلاوة، وقال له: سوق ده!! وأخونا علي الفور ردّ علي الشيخ في استنكار: النعيسان ده؟؟؟!! قال له: نعم. المهم في الأمر أخذ الرجل الحوار معه مجبراً، وفي الخلاءِ وجدوا اللصوص ومعهم المواشي وكانوا عصبةً أشداء لا قدرةً لهما عليهم. ما يهم أن النعيسان بدأ يقرأ ويمسك العدد وبدأ يذكر وينادي، يا

الشـــيخ البرعي، يا الشـــيخ الطيب، يا الشيخ حسن، يا الشـــيخ فلان وهكذا. وفجأة اجتمع كل هؤلاء الشـــيوخ حول اللصوص واســـتردوا له مســـروقاته. وعندما رجع الرجل للشيخ في مسيدهِ قال له:

أبوي الشيخ أبوي الشيخ والله ما قصرت معاي كُلُّو كُلُّو ولكن النصيحة النعـيسان ده أعمل منُه حسابك!!!».

هذه المرّة يرتفعُ إيقـــاع الطبول والدفوف أكثر وأكثر، أما مســـتوي الضجيج فقد أصبح مثل قريةٍ من البيض أغـــار عليهـــا جيشُ من الهنود الحمر ومقاتلي الســـموراي. بدوا الحيران والدراويش كأنهـــم غرقي في خضم الذِكر. تنفلقُ الدائـــرة الكبيرة إلي عّدِة دوائرِ مجنونةٍ. أحَاول الســـيطرة علي زمام النـــص حتي لا يصاب بحالةً من الهذيان، وشيخ الطريقة ينهزم فيهِ الوقار فيتداني لمستوي الدراويش الصغار! فيهرول إلي المنتصفِ و يظهر أنه ســـكران روحياً. أما حي حي قيوم حي يا قيوم جاءت هذه المرة بدون فواصل زمنية. يرددُ الذاكرون في أنشـــودةِ (ســـايق الليل للقرَضة قرش) بينما حالةٌ من الجنونِ والفوضـــي ترتبُ المكان، فتأتي هي من قلبِ السكون في انفعال!! كيف لي أن أوصفها؟؟ تفرُّ مـــن قلمي الكلمات وتبدو مثل قطيعٍ من الأغنامِ المذعورة!

أنـــوي إرجاعهـــا إلي الحظيـــرة! بينما تفرّقـــت هي أيدي سـبــــــأ! أتركها وأطاردُ مجموعةً من القنواتِ والجداولِ، تكسّرت كلها في نفسِ الوقتِ، أتركها أيضاً.

ولكن.. والدة الشـــيخ وصفتها بالملعونةِ وشيوخ القرية كانوا يقولونَ عنها شـــيطانة ولكنهـــا كانت نوارة الفَرِيق في نظرِ الصبيةِ والشباب.

شـــيخ الطريقـــة يردد (حي قيوم حي قيـــوم حي قيوم) بينما تزأرُ النّوبات وترفرفُ الأعلام و الرايات، والدراويش يدكُّون أرض المســـيد. فتتكون الحلقـــات وتنفصلُ الدوائر وتتكوّر مرة أخري والشـــيخ في المنتصـــف، لتدخل الفتاة بكل مافي الأرض من مجونٍ وخلاعةٍ. وعندها زاغت عينا الرجل. عفواً!!! هذا المشـــهد لم يكن ضمن السيناريو!! ياللإخراج الســـيئ!!

ألقت الَفتاةُ بكلِّ الأســـلحةِ التقليديةِ والممنوعةِ، وشـــيئاً فشيئاً كشـــفت عن المخزون الإستراتيجي النووي! كان هذا كافياً لكي تسقط بغداد!!! وتسقط معها عدة عواصم صوفية أخري!!!

والدةُ الشيخ تدعو علي المومسِ بالساحقِ والماحقِ والبلاءِ المتلاحق!

والشيخُ يدعوها للاقترابِ! فيرتفعُ إيقاع الطبول والدفوف أكثر وأخطر. مســـتوي الضجيـــج والهجيج فوق الاحتمال والشيخ المسكين يردِّدُ في خشوع:

حي قيووم حي قيووم.

ما بين مريم الأخرى والجودلية

تشـــبّثت ذاكرةُ العمـــر بطيفِ الحضور البعيـــد، ونديمه كان مشـــدوداً بوترٍ مـــن زمن البدايات المهروســـةِ عمداً في حليبِ الأزمنـــة. المكّان بالرغم من خرطوميتـــهِ الفاترة لا يزال يجترّ ســـبيطةً من هلالِ النخَيلِ الخصيب، ورشـــحات يناير توشّح المدي الهشيم برعشةٍ كئيبةٍ زجّتها الأيام جوراً في دفاتر الزمن. باردٌ كان والمكان. الشمسُ تحاولُ أن تتفلسفَ علي الدنيا بتبريرِ نضوبِ دفئها بصراعاتِ الفصول، والمواســـمُ تهربُ إلي فلسفةٍ أخري وتصكُّ قانوناً يســـتبيح حرمة الأوصال المتعبة. أن تلجأَ إلي الفلسفة فأنت تتفلسف!!

وأن تحـــاول إنكارها فأنت تتفلســـف مرةً أخري..!! هكذا قال أرسطو!

وقتئذٍ كان في التاسعةِ عشرة من طازجِ العمرِ، الشيء الذي لم يخِفه من دسم نظرتها واللجوء إلي باهرِ سطوعها هرباً من ظلاماتِ الدفاترِ التعليميةِ و طلاسم المعادلات!...

صديقتــه مريم لم تفلح الأســرار المغموســة في خصلاتِ شــعرها في توقيــع هدنةٍ ما بين احتياجــه وهياجه، فكان لا يعتبرها أنثي ثورية لَا تأبه بالتسكّع في البلاط الملكي لأنفاسه. ولكنهــا أصرّت أن تكون أميرة الأَميرات في حكاوي ألف ليلة وليلــة.... أما هو ومنذ أن كان « غراماً في عين أمه»، وجد نفسه شغوفاً بالســندباد البحري، وكليلة ودمنة، وشيئاً فشيئا اتجهت بفسقه إلي نادي الخطايا، ولم تنجو منه إلا امرأة العزيز! إلا أن قميصه قُدَّ من قُبُل. انتهي زمن السندباد للأسف.

كانت تقتله الرتابة التي تعلّق أســتارها علي جدران المدينة. فهــي تحيلُ حياته إلــي روزنامة باهتة، إلــي جدولِ حصصٍ يوميةٍ، كان كالبشــر العاديين الذين يحلمون بانقلابٍ ينتزعهم مــن رتابتهم. أما مريم فقد كانت أنثي بدقــاتِ قلبٍ منتظمةٍ وساعة سويســرية لا تقدم ولا تؤخر. ومع ذلك كانت تجوب معــه أطراف الزمكانية ولا تهتــم إلا بكونها أنثي خرجت من قلب العتمة، وتحلم بالضوء.

فاجأته تلك التي دسّــت بأنفها في حواديت نجيب محفوظ

وتاهت بين القصرين! وشـــربت من السكرية وهي تلفُّ نفسها بعباءة إسكندراوية تجوب بها طرقات المدينة.. وغمرته بأنفاسٍ ريفيةٍ شهيةٍ مغموســةٍ في مدِّ المني وجزر الأماني، فيما كانت تختــالُ في طاؤوســيةٍ وتصدرُ أوامر صريحــة لكل قطعةٍ في جسدها كي تتراقص علي إيقاعاتِ القلوبِ العطاشي، الشيء الذي جعل نهدها يتمترس شاهراً دلالهُ في وجوه القوم السكاري وما هم بســكاري. أيتها الريفية... الشــقية.. الشهيةُ... البهيةُ... الجودلية..!

أطلت الجودلية بوجهٍ تنســج منه الشمس أنفاس الأصيل، وجسدٍ يستدعي نزقات الفحولة الصابئة فوخذته حلمئذٍ تماثلاتٍ عابرةً في الأزمنة والأمكنة، والجسد والروح، تتّسِمُ بدرجةٍ من التجريدِ فــي وصفِ تجلياتها، عندها يتفاقمُ الاســتلاب نحو ماهو مادي مع علوِ الصوتِ الداعي لإســقاطِ الآخر..! وهنا تكمن إشكالية الآخر في عدم القدرة علي التعاطي مع نداءات اللا وعي ودمجها تحت مسمي نذوات، لتنبري نقطة اللاموازنة وضعف الاســتجابة التي تهيىء مناخاً مثالياً استثنائياً لمجموعةٍ من العقدِ النفسية.

مريم هنا تمثل قطعة ديكور بســيطة لا يجب المســاس بها! ولكن يرتفــع ثمنها مع تصاغر عمرها وفقــاً لمعطيات تزامنية

عدّة. والجودليــة تعبئ هذا الحيّز وتحفّــز جميع قطع ديكورهِ لمســرحة المكان! وتخبز من أنصاف الأحلام رغيفاً ســاخناً، وتجعل من الرغبةِ كعكةً يســيل لها اللعاب. فيما تحافظ مريم علي مجدليتها التلقائية المزمنة.

هــذه الظروف هيأت ورســمت مآلات العلاقــة بينه وبين الجودليــة التي كانت تري فيه منجم كبريت يثور بانتظام. وهو كان يراها تفاحةً ســقطت لتســخر من عذرية مريم وتكتشف الجاذبية الجودلية!

كانت الخرطوم تنامُ مبكرة.. والشيء الغريب أنها كانت لا تتناول الحليب ولا تتغطي.. ولكنها كانت تهجد علي أحاجي الأمس وتبكي علي ماضٍ تولّي...

غرائبية الصور تزأبقت في مخيلته مكرّســة لوضعيةٍ شغوفةٍ بالتغيير. يعي أن نفســه قد تململت من ثوابتها.. فهي توشك أن تنقلــب إن لــم تكن فعلت. الخرطوم بــدت كأرملة مات زوجها في الحرب..! فتشــققت أرجلها التي لم تعرف شكل الحنــاء، وباضت الحمامة في صدرها. المناخ بلا شــك يهيئ معطياته لكل ماهو مســكوب في قالــب التجديد ولكنها في الآخر احتشادات بلا معني وتساحُب لا يلد المطر!

وعندها رمت الجودلية حجراً في بركة أيامه، وجرت الدماء

في عروقها وأحدثت تغييراً لا أظنهُ كان خافياً علي أحد. وبعد ذلك أصبح لا يحفظ صورة مريم.

مضي زمـــنٌ بعيد. وتباعدت خطي الأيام واستشـــري داء التلقائيـــة في عروق الجنس الخرطومـــي. حافظت المدينة علي فتورهـــا وزحفت مجموعة مـــن الخيوط البيضـــاء علي رأس الجودلية... أولاد المدارس أرضعتهـــم نورها فتكاثروا عليها وظللوهـــا بالخفـــوت.. ورفع صدرها الرايـــة البيضاء وأعلن الخضوع لتنظيرات نيوتن!

أم محمد امرأة من زمان الأمس وليالي الوصل بالأندلس... فتاةٌ كانت تدعي مريم... حافظت علي نفس النمط القديم.. البيت الجامعة... الجامعة البيت... مع قليل من التغيير... البيت العمل... العمل البيت...

وهو واظب علي تســكعه فيه... لا الزمان هو الزمان... ولاهو

ولا أنا ولا أنا...

(أصبح ينتظرُ قيامةً تحييه.. وتعيد صياغة الإنسان داخله)... (الأرض تغطّت بالتعب... والنساءُ اتخذن شكل الفراغ...) والرحيل الممعِن في القســـوة الذي ترمّلت له كمنجات الشهيق المحشرج. هذا كل ما في الأمر، وليس في الأمرِ عجب!

هذه هي الحياة تتجدد في ثبات. . . و بين رفيقة كان يحسبها شـــمسٌ خالدة. . . تحولت إلي عود (ثقاب لا يضىء إلا مرة واحدة). . .

وبـــين حبيبة لـــم تبارح عقلـــه كنخلةٍ نيليـــة. . . لها نفس الطعم

ونفس الشكل. . . . . ونفس الطول. . . . لا تتغير منذ بدء الخليقة

تأرجحت موازينه. . . . . والكل يمضي.

هو يمضي وهي تمضي وهم يمضون. . . . .

وتبقي الحياة. . . . .

بنت الداون تاون

لســعات البرد القارصة بــدأت حملة تأديبية شرســة علي جســدي المنحول، فكانت الرعشــة هي حواري الصامت مع حدة سياطهِ. ولهذا السبب لم يكن المكان مزدحماً كما تعودت عليه في مثل هذه الأوقات.

حاولت أن أدفئ أنفاســي بحرارة اشتعال النظرات إلي تلك الأنثي التي شــغلتني بعينيها الموسميتين. أحس أن هذه الأنثي يرتديها الصيف في كل المواسم. كنت أجلس ساعتها في ذلك المقهي الشهير الذي يقبع خلف ميدان طلعت حرب في داون تاون القاهرة. لم يكن البســتان في ذلك المساء يرهق مقاعده بأجســاد العظماء كمــا كان. اللهم إلا ثِقــل انتظار صديقتي العابثة، التي كانت شحيحة الحضور وضنينةٌ بالموعدِ!

. . . . . .

أنثي الداون تاون بعينيها اللطيفتين منحتني قليلاً من الدفء، فقررت أن أتخابث بعض الشيء وأسمح لنفسي برقصة، وهي تتمايل بهدوءٍ مع أنغـــام أغنيةٍ ما تنبعث من هاتفها المحمول. فغمرنـــي إحســـاس أن هذه الأغنية لابد أن تكون نسّـــم علينا الهوي. وفي الحقيقة لا أدري لماذا!

ولكني لمستُ في وجهها نفس الإرتياح الذي يغمرني عندما أستمع لفيروزتي!. كان عليّ أن أحتمل سماجة ذلك الضيف القادم الذي يتفوق علي ميلاد نادل البار السمج. هذا الضيف الذي لا تحتمله اللحظة ولا ظروفي. وفعلاً ما إن اغتصب مني خلوتي مع عيني الفتاة حتي بدأ فواصل الثرثرة. كان يجب أن أذكره بقاعدة مهمة من قواعد استيلا!!. فتوجد قاعدة تناسبه تماماً.

«لو ح تِرغي ع الشباب ح تدفع الحساب »!!

والمعلوم أن لاســـتيلا قواعد كثيرة وطريفة للغاية سأفرد لها حيزاً قي وقتٍ آخر.

الضيف الثقيل قرأ في ملامح وجهي ســـعيي الدؤوب لحوارٍ ما مع تلك الفتاة، ولم يفاجئني كثيراً عندما قال:

- دعنا نتعرّف علي هذه الفتاة!!

لم يتردد ونهض من مقعدهِ المجاور لشيشــتي التفاح، واتجه صوب الفتاة. كنت واثقاً أنه سيســتعمل معها كل أنواع الثقالة المعروفة وغيــر المعروفة. فلم تمضِ ســوي لحظات حتي عاد بصحبة الفتاة وجلسا.

صافحتني بحــرارةٍ منخفضة وعرفتني بنفســها، ثم عادت لتســمع ما تبقي من أغنيتها في لا اهتمام. وعندها أيقنت تماماً أن هذه الأغنية لا بد أن تكون نسّــم علينا الهوي، خاصة بعد ظهور هذا البريق الفيروزي علي عينيها الجميلتين.

بدأت أحــس بالضيق من هذه اللاجئة التــي مزقت جواز سفرها علي مطاري ولم تدعني أطلب منها التحقّق من أوراقها الثبوتية. وهي لا تعلم بأنني مشردٌ عاطفياً انتبذتني أقدراي إلي هذه البلاد. في الواقع لقد جاء بي الزمان وأعجبني المكان.

كانت الســاعة تشير إلي تمام العاشرة حسب التوقيت المحلي لاستيلا!

فاقترحت عليهما الذهاب إلي الحرية ذلك البار العتيق الذي يقع في ميدان الفلكي بوسط البلد بنواحي باب اللوق.

- يا شباب أقترح أن نذهب إلي مكانٍ آخر، لقد مللت هذا المقهي.

لا أعــرف كيف رافقتنا فتــاة الداون تــاون المؤلّف قلبها.

ولكننا ذهبنا ووجدنا الحرية كما هي، قمة الفوضي والضجيج والصراخ، وكأنها بؤرة للسكاري! وما هم بسكاري.

- لماذا نحن هنا؟ أنا لا أسكر ولا أدخل خمّارة!.

قالت محتجة!!.

- وكذلك نحن لا نسكر، اجلسي معنا ولا تشربي.

أوجدنا لثلاثتنا كراس ثمل شاغروها بعد جهدٍ جهيد، وبدأنا نقزقز في الترمس ونحن نتحادث في مواضيع شتّي. وأظن أن سعينا أيضاً لشتّي!!

- ماذا تصنع بكمٍ هذه الخمر؟. سألت في إستغراب.

- لا شيء إطلاقاً. ما رأيك في زجاجة آي دي؟

- لا.. لا.. آي دي؟ يعني إيه آي دي؟

- شـــراب حلو بنكهة الفواكه، يا ميلاااااااااد واحد آي دي لو سمحت!

لم يتأخر النادل الســـمج كثيـــراً وأحضر المطلوب، والمعلوم أن للســـكاري كرماً حاتمياً في بعـــض الأحيان، خصوصاً تجاه المبتدئـــين، ولكن بعـــد ذلك يمتنعون عن تقـــديم هذه الخدمة المجانية.

أخذت فتاة الداون تاون تتفحص زجاجة الآي دي في حذر ثم بدأت تشرب، ونحن نشجع فيها للمزيد.

اكتمل سباق الفورملا واحد للبيرة بخيرهِ وشره، وبعد ذلك افترقنا لا نلوي علي شيء، وكلٌ يغني علي ليلاه.

وبعد ثلاثة أيام اتصلت علي الفتاة نفسها وأنا لا أتذكر متي أعطيتها رقم هاتفي ومتي قابلتها أصلاً.

- أين أنت يا صديقي؟

- أنا جالس في المقهي.

- مقهي؟؟ رجاء لا تضيع وقتي وتعال أنا في بار الحرية.

- الحرية؟؟؟؟

ولم تمضِ سوي دقائق حتي أصبحت من سكان الحرية، وفتاة الداون تاون بعينيها الجميلتين تستمع لأغنية من هاتفها المحمول. وبعد أن صعدنا إلي قمة جبال الفوضي الخلاقة، أخذت منها سماعة الهيدفون ممنياً نفسي بوجبة دسمة من الفيروز والطرب الجميل. «نسّم علينا الهوا من مفرق الوادي».

وضعت السماعة في أذني وبدأت أسمع.

«الشريعة جات قفلوا البارات

السمك سكر والجداد زِفِر

ورا ورا ورا وراااا ورا وورا وورا ووورااا »

- يا شيخة. ما هذه الأغنية الغريبة؟! الله يقطع السكر وسنينُه.

قلتها وأنا أتراقص شيئاً فشيئا مع كلمات الأغنية العظيمة، ولم أنس أن أشكر فتاة الداون تاون علي هذه اللحظة النادرة.

سارة
بائعة الصحف

فاجأتني وأنا أنفق الوقت بتصفح وجوه الســابلة والعابرين وأنا جالس إلي ذلك المقهي المكتظ في منطقة البورصة بوســط البلد. كانت تحمــل حزمةً من الصحف المحلية. عندما رأيتها أدركت أن عينيها تحملان خبراً رئيسياً

مهماً. ولا بد من قراءتهِ.

- معايــا الأهرام والجمهوريــة والدســتور والمصري اليوم والشروق!

- ياااااه، هاتِ الدستور والشروق.

صحيفة الشروق المصرية التي تعمل فيها صديقتي لذا وجب عليَّ دعمها.

سألتها بعد أن سلمتني الصحفيتين:

- عايزة كم يا قمر؟

- جنيهين ونص.

ردت عليَّ وأنا ما زلت أحاول تصفح الخبر الرئيسي الذي يتصدر عناوين عينيها. كان خبراً مهماً.

- خُدِك خمسة جنيه والمُرسي أبو العباس ما ترجعيش باقي!!

نقدتها مبلغ الخمسة جنيهات وأنا أتفحصها وأقول لنفسي:

- إن شاء الله ما حدّ حوّش!

معايا الأهرام والجمهورية والدستور والمصري اليوم والشروق، أجيبلك حاجة تانية يا باشا؟

- لا مُش عاوز حاجة، بس لو سمحتي اسمك مين يا شاطرة؟؟

- سارة!!

- وأنت اسمك مين؟

ردت عليَّ بمنتهي الرقة واللباقة المصرية، كنت أظنها كانت تحاول أن تستدرِج هذا الزبون المهم، حسب مقاييس البقشيش، وبريق الخمسة جنيهات الذي لم يزل يلتمع في محفظتها، وقلت في نفسي:

- لو جيتينا في السودان ح نعملك رئيسة تحرير علي

طول!!

- أبُوس رجلك خُدنِي معاك السودان يا باشا!!

وبعدها ذهبت سارة، وتركتني وأنا أحاول مطاردة هذا السبق الصحفي الذي تحملهُ عيناها!. شعرت بأنها في تمام العشرين. عشرون أسرعت الخُطي

وتركتني أحاول أن أتصفحها. أطبعها في مخيلتي. أجعلها مانشيتي الرئيس.

سارة بائعة صحف الداون تاون الجميلة.

وبعدهـــا أصبحت مدمناً علي جميع الصحف الســيارة في جمهورية مصر العربية، وأدفع أضعاف الثمن الرسمي لجريدةِ الشروق.

وأصبحت سارة خبري الرئيس والمانشيت التي تتوقف عندهُ كل كلماتي، لم يعد يعنيني في جريدة الشروق أنها الصحيفة الذي تعمل فيها صديقتي.

يكفيهـــا فخراً أنها الصحيفة التي تبيعها ســارة أنثي الداون تاون.

وعيناها اللتان تحملان سبقاً صحفياً متفرداً.

الفرح

بُص يا عم أنا نفسي أروح فرح سوداني، أنتوا مش بتجيبوا رقصات؟

- لا يا حبيبتي نحن بنرقص برانا!!
- لا والنبي؟؟
- آه والله العظيم.

كان هــذا هو مدخل حواري مع بنت الداون تاون المصراوية المهجنة من المستعمر الفرنسي حسب أصولها التي حدثتني عنها. فتاة المنصورة خرافية الحسن، تحاول التطبيع مع سودانيتنا جبرياً وكأنهم أخبروها بأننا من أنصــار اللحوم البيضاء. وباعتباري كائناً نيلياً كان لا يضيرني أن أصب في ذلك البحر.

وقد كان.

فنانة ســودانية كانت تقيم أحد حفلاتها في ذلك المســرح

الشـــهير، فكانت فرصة ســـانحة لكـــي أصطحبها معي لحفلٍ سوداني.

وذهبنا تصحبنا أحلام وأشـــياء لا أري من مصلحة الســـرد أن أفرد لها مســـاحةً هنا. وباعتبـــار أن الغناء كان ينحو منحىً فلكلورياً بدونا أشـــبه ما نكون في حفلة زار. فتاة الداون تاون بأصولها الفرنســـية الفصيحة كانت ترقـــص بلا تناغم نتيجة للفوارق الإيقاعية الشاســـعة. لأن حـــدود اتزانها الإيقاعي لا تتجاوز الواحدة ونص، ورقصني يا جدع.

ما يهم هنا أن فتاة الداون تاون ســـاهمت مساهمة فعالة في إحداث البلبة في الحفل بلحمها الأبيض المتوسط.

ويجـــب أن لا ننس أننا كائنـــات نيلية تحب التورط في هذا البحر.

جامايكا

فــي بار جامايــكا الكائن بممرِّ البنــك الأهلي المصري فرع شــارع شــريف، كان الطقس حاراً وخانقاً ولــم يفلح جهاز التكييف الوحيد بالمحل في بعــث بعض البرودة التي يحدثها الزحام وأدخنة الشيشة وسحابات الدخان المتصاعد من السجائر الكيلوباترا الرخيص. كانت رائحــة البول تضفي علي المكان خصوصيةً فريــدة لايعلمها إلا مرتاد هذا المــكان. بعد قنينة البراندي الثانية تصبح لرائحةِ البول سحراً أثيراً في هذا المكان. كان البار يفتقد لثرثرة مدحت وحالات هياجه وشتائمه وفوضاه الخلاقة. الخطأ الأكبر الذي يرتكبه الســكرجي في حق نفســه أن يخاطر بدخول بار جامايكا بعد أن يفتح الشــخص المزعج الوافد الجديد قنينة البراندي الثانية. لن تستطيع أن تتحمل هذا الإزعاج والضجيج والصراخ إلا في حالة أن تكون ســكرجي

ثقيل الدم. يطلب الرجل الصعيدي الذي يجاورني في الطاولة طبق الفول النابِت الرابع، الشىء الذي يزعج الساقي المسكين، ولكنه يرضخ لطلبهِ ولا ينسي أن يشتمه قائلاً:

يابن الوِسخـة أنت جاي تتعشي عندنا؟.

سألت في إحدي المرات (بار مان) مخضرم عن سر صبرهم علي أحد الرواد المزعجين، فأخبرني بأنه زبون مهم جداً، لأن إزعاجه يجعل الزبائن يشربون ولا يسكرون أبداً. وهذا الشىء فـي مصلحة المحل بالطبع. ليس هذا فحسب ولكنه أكد لي بأنهـم في كثيرٍ من الأيام يتحمّلون عنه فاتورة حسـابه لنفس السبب. لأصحابِ الحانات في زبائنهم شؤون!!.

انتصـف الخمـر بقليلٍ في ليل السـكاري. فهـم عادةً ما يحضرون إلي الحاناتِ هادئين تسـبقهم ابتسـاماتهم العريضة وآمالهـم العظيمة في قضاءِ وقتٍ هادئ سـعيد، يبتعدون فيه عن هموم الحياة اليومية وسـخفها وأوجاعها. وبنفس الهدوء والأدب يتبادلـون التحية والقبلات الطيبة، وتجد الواحد منهم في أبهي وأنضر ابتسامة وهو يقول:

إزيك يا عم مدحت واحشني يا راجل.

بكلِّ أدبِ واحترام وترحاب. ويجلس كلٌّ إلي طاولتهِ ويبدو علي هيئتهِ مظهر العالـم أو المفكّر العظيم. كأسٌ فثانٍ وقطعة

جبن أو حبة ترمِس ومن ثم «تبدأ ثورة الكاسات المضادّة وفلُول العقل الباطن في الاشــتعال». فلا تســمع إلا عُهراً ومجوناً وشــتائم. لدرجة أن نفس الشــخص الذي كان يبتســم قبل ثلاث كأســات في وجه مدحت، يتذكر أن الأخير لم يقم معه بالواجب الذي يستحقه. ويقول بصوتٍ عالٍ جداً:

يــا مدحت.. أنت يا اللــي أمّك بتبات بــرّا وما تقوليش ممرضة.

ويضحك الجميع بمن فيهم أنا. ولكني أضطر لأن أحتملهم لأن هذا العالم أجد فيه ما يســحرني ويشــدّني، لأن المعرفة الحقيقية لم أجدها في صفحاتِ كتاب، ولكني انتزعتها انتزاعاً من هذه الحياة. والمراقبة الحصيفة للوعي لا تفضي إلي شيء. لا شــيء أبداً إلا لا شيء. اللا وعي يمدّني بالكثير من الخفايا ويجعلني أدخــل الخزائن المقفلة للعقل البشــري، رغم كثرة مفاتيحه التي تنــوءُ بالعصبةِ أولي الفهم. لهذا الســبب فقط أصبر علي تقلبات وانفلاتات هذه المرحلة، انتظاراً لما بعدها.

تشــاهد الوجوه المألوفــة التي اعتدت علــي ملامحها في كل الأوقــات، بعضهم يقول إنه يســكر في هــذا المكان منذ ثلاثين عاماً، بل أكثر. وهؤلاء الأشــخاص هم من يجعلونك تألف المكان، بل ويصبحون جزءاً لا يتجزأ من أثاثه وكراســيه

وطاولاته وحتي رائحته، ويشـــكلون معــاً قطع الديكور التي تعطي لهـــذا المكان خصوصيته التي لا تتوافر في غيره. ولكن قد يأتي إلي المكان أشـــخاص غرباء لم يعتد وجودهم أحد من روّاد المكان الأصليـــين، وأغلب الظن أنهم لن يجدون ترحيباً كافيــاً في أول الأمر. ولكنهم في مرحلةٍ من مراحل الســـهرة قد يصبحون أشخاصاً مهمين جداً ومرحب بوجودهم، وذلك عندمــا تبدأ مرحلة الألفة والكرم الحاتمي غير المســبوق. فيبدأ ســباق الأنخاب ومراسيل السجائر والمناديل والمزّة تتوافد علي طاولتــك التي تجلس إليها. وقد يحضر أحدهم خصيصاً لكي يلقي عليك التحية وكأنه اكتشــف وجودك للتــو. وغالباً ما يتخلّل هـــذه المرحلة بعض التراجيديا مثــل أن يتذكر أحدهم صديقه الذي استشـــهد في حرب أكتوبر، أو رفيقه الذي مات عن عمــرٍ يناهز الثمانين، فيبكيه في هـــذه اللحظة الحميمة، ويؤكد أنه «انخطف» وهي كلمة يصف بها المصريين من مات في ريعانِ شبابه.

وبعد هذه المرحلة غالباً ما تأتي مرحلة عبد الحليم وأم كلثوم، حسب برنامج الأغاني التي تذيعها إحدي القنوات التلفزيونية، أو الراديــو. ويحــدث فيها اســترخاء تام واجتــرار لبعض الذكريات، ودائماً ما ينوّه الساقي بأنهم قد وصلوا إلي مرحلة

last order. ويبـــدأ في تنظيف الطاولات وجمع الطفايات ويقوم في هذه الأثناء بجمع وكنس الزبالة من وحول الطاولات التي انصرف شـــاغلوها. وهذه المرحلة شديدة الحساسية لكثير من الســـقاة وأصحاب الحانات، لسببٍ بسيط جداً. فهي تعتبر المرحلة الانتقالية من الفرفشـــة إلي الغيبوبة. وبعدها ستحدث المغالطات!!. وبالتأكيد ليس هنالك أكثر لزوجةً من ســـكران طينة يقسم بباخوس أنه لم يسكر بعد، فهؤلاء هم أكثر إزعاجاً وإثارةً للمشاكل والخناقات في الحانات.

فرار

أهربُ من لغتي. . .
أتعثّر بكومةِ أوراقٍ مُخنّثة. . . !
أقررُ مواجهة هذه اللغة.
أبحثُ بين ركامِ أنفاســي المبعثرة عن كومةِ أوراقٍ شــديدة الخصوبة!
أقف!!
يتبوّلُ قلمي علي رأسِ فكرتي محدثاً صريراً مخصٍ.
لا أجدُ من يمارس الجنس مع هذه اللغة!

خيانة

للحبِ مقدرة كبيرة علي تبديلِ المواقف.

وجدتهـــا تحبو علـــي رصيفِ ذكـــري فحلمـــتُ فقط بأن أصافحها.

وعندمـــا قبّلتُ يدها منحتني زهرةَ ياســـمين ووعـــداً بليلةٍ حمراء.

فـــي اليومِ التالي قابلتها تلهـــثُ بصمتِ خطواتها علي ذاتِ الرصيف.

ابتعدنا بضجيجنا عن ثُباتِ الطريق.

وعندما جاء عابرُ ســـبيل يمشِّطُ خصلات الرصيف بحثاً عن لقاء.

لم يجد إلا زهرةَ ياسمين وعلي شفتيها بقايا خيانة!

عاشق كذاب

منــــذُ أن هجرتهُ حبيبتهُ الأخيرة قرّر أن يتجنّبَ ركوب البحر وعشق النساء

غسل وجههُ في شظايا جدول وتوضأ . . .

أقسم أن لا يفكرَ في شفتي امرأة

أفني النهار كلهُ في تغييرِ صهيلِ خيول جراحاته

وفي المساء قرأ المعوذتين ونام

حلم بأنهُ علي متنِ سفينةٍ خرقها قبطانٌ ثائر

ليغرق عاشقيها .

صحــا من نومهِ مفزوعاً ليجد نفســهُ تحــت عجلاتِ قطارِ أنثي .

فمات عاشقاً . . . !

ثقافة

ترِنُّ في كفّي اليسري عملاتٌ معدنية.
أعطيها إلي سارة بائعة الصحف المتجولة وأمدُّ لها اليمني.
لتهبنـــي جريدتي المســائية المفضلة التي عــادةً لا أقرأ حتي عناوينها الرئيسة!
أرشــفُ قليلاً مــن فنجالِ قهوتي المظبــوط وأجري اتصالاً هاتفياً.
فأكتشــفُ أن صديقتي الجميلة قد تقدمت باســتقالتها من الصفحةِ الفنية!
أدلق ما تبقّي من قهوتي السادة علي حلقي!!
وأصدر قراراً بتعيينِ سارة بائعة الصحف الجوالة رئيسة لقسمِ الحوادث!!

إف إم

تآمرت عليهِ الخرائط ونافقتهُ الجغرافيا.

وعندمـــا أفلح في الفكاكِ من جرحـــهِ الميتافيزيقي أطبقت عليهِ الأشواق.

وبكي...

بدأ يتحـــدث مع أفكارهِ وهـــو يلملِمُ قصاصـــات مقالهِ الراتب.

كان واضحاً أنهُ غارقٌ في تداعياتِ حنينهِ.

فقرص أذن جهاز الراديو الصغير ليقودهُ إلي إحدي موجات الإف أم!

تلك التي تذيعُ أغنيتها المفضلة.

رنّ جرس الهاتف المحمول.

كانت علي الخط.

حطــم جهــاز الراديو الصغير وبدأ يســتمعُ إلــي أغنيتهِ المفضلة!

وطنية

قررتُ في هذا الصباح أن أتّخذَ مواقف وطنية.

فصلتُ علماً من دمائي ورفعتهُ علي ساريةِ صمتي!

خرجــتُ في مظاهرةٍ نظمتها جماعــاتٌ وحدوية تدعو إلي الانفصال!

ســقطت عليّ عبوّة من الغازِ المســيّلِ للدموع فبكيتُ فرحاً بموقفي البطولي!

اقتادتني مجموعةٌ من العسكرِ إلي جهةٍ غير معلومة.

وضعوني علي كرسى كهربائي معصوب العينين.

عندما أفقتُ وجدت، نفسي وأنا أرجفُ من البردِ في زنزانةٍ انفرادية.

حملتُ العلم المرصّع بصمتي وتغطيت بهِ.

الآن أدركت معني أن أكونَ وطنياً!

السيد
رئيس الجمهورية

أرهقت جهاز التحكم عن بعد بحثـــاً عن قناتي التلفزيونية المفضلة.

وجدتُ كمّاً هائلاً من إعلاناتِ التبغ والمساحيقِ وأحمر الشفاه!

شاهدتُ مجبراً كثيراً من الأفلامِ العَربية.

وأخيراً...

وجدتُ رجلاً عظيم الشأنِ يرغي ويزبدُ في قناتنا القومية.

يحملُ بيمينهِ قائمة من التســـويفات ويمسكُ بيسارهِ مجموعة من الوعودِ الوهمية!

بحثتُ عن نظارتي وسط كومة من الصحفِ اليومية!

وعندما نظرتُ ثانيةً رأيتُ لافتةً عظيمةً مكتوباً عليها:

السيد رئيس الجمهورية!

هويّة

أخبروني في مدرستي الأولي بأنني مواطن عربي.

لم أكن أســتطع مخالفتهم هذا الرأي!. وبعدها كبِرتُ وفي جيبي ترنُّ عملات عربية..

ودراهم ودنانير.

كانت لنا محافظة فأصبحت ولاية.

أمروني أن لا أطفئ السيجارةِ علي خدِّ الإمارة!

حملتُ وجهي الزائف واتجهتُ صوبَ إحدي السفارات التي تفاخر بأصلها العربي.

مددتُ يدي الملوّثــة لمصافحةِ أحد أبنــاء عمومتي فصدّني بجلافة وقال:

أيادٍ عربية ممنوع اقتراب العبيد!

فرحتُ ســاعتها كثيراً بزنجيّتي وحجــزتُ مقعداً في الطائرة

المتجهة لإفريقيا.

أخيراً سأحتضنُ أول غصنَ أبنوس يقابلني.

صدّني غصن الأبنوس بجلافةٍ و قال:

عربيٌ مخادعٌ لا تلمسني.

اتجهتُ صوب أقرب حديقة حيوان.

سأعملُ نصف قردٍ بدوامٍ كامل!.

وحمة

تُثقلُ كاهلي قافلة الأيام التي مضت من عمري.

فحاولتُ أن أردّدَ حداء المستقبل بحنجرةٍ مشروخةٍ تعوّد صداها أن يذكرني بخيبتي. وصرخت.

وجدت أن الماضي ما زال يحفرُ في ذاكرتي وشماً يطاردني بإصرارِ وحمةٍ لا تحكها خربشات الأيام.

حملَتُ وحمتي ومضيت.

اكتشفت أن الجرح القديم للحياةِ لا يزال ينزفُ في حاضري.

قررتُ أن لا أتوحّم إلا علي الموت!

سندريلا

لمــاذا هم قبل أن ينصّبــوكِ علينا ملكة لــم يطلقوا عليك متلازمة بعث الروح في الــلا حياة؟ الصهباءُ تثرثر علي حافةِ كأسٍ، وتمضي بلا ســاقين، والعمر يواظب علي حراق روحهِ فــي صبرٍ طيب. مــاذا دهاك يا باقي عمري؟؟؟ هل تحســب الأغنيات نزيفاً من جرحِ القصائد وحســب؟ كانت تنتظرك في نصفِ الخطوةِ ثمة طُرُقٌ ومشــاوير لا يدري تســكعك المضني عنها شيئاً. يوقّع الغبار علي أوراقك الخالية منك، ويترك لك شيكاً علي بياضِ بؤسك. عفواً فأنت لست ممن يرتدون الحلم في مشــاويرهم المحبطة. فها أنت تهرول زحفاً بكاملِ عُرْيكَ آملاً أن يدثّر صمتك عُواء الكلمات.

ظمآن كنــت.. تلهث بقدمــينِ مبتورتين خلــف أنثي لم ترضعك إلا ســرابَ غيابها. تبحلق في نهدِ وصولها المفترض

وهو يمارس هزّاته الارتدادية علي مرمي من بركانٍ خامدٍ ينبعث من فوّهته المطمورة هواءٌ باردٌ، ولم يجد من يشــعل بين طيّاتِ صقيعه، ثورةً حمراء.

هل أمطرت؟. يا أحمق إنها الســماء تمارس غوايتها القديمة نفسها، وتعرِّي لك ساقيها وتضحكُ في خلاعةٍ كعاهرٍ تطمع في المزيدِ من أوراقك النقدية. لم تكن تملك حينها سوي حقل نفط خالٍ إلا من تشــهِّيك للحليــب الطبيعي. تحلم بأن المطر يصفّق خلف النافذة، يطرقع أصابعه، تتثاءب حبيباته ناعســة وهي تتملّص من إفريزِ غيمها وتطلب الإذن بالدخول. ولكنها لم تمطر. لم.

ســأصنع لكِ من جزيلِ القمح كسرة. هكذا أخبرتكِ ذات ســنبلٍ ونيل. سأمضي غير مبالٍ بما ضلّ الطريق من عروقك، فلتذهبْ حيث شــاءت، فإن النيــل موعدنا. كنت أعلم حين وضعوك علي ناصيةِ حزني ابتســامة، أنني سأجدكِ في مفترق الطرق. الأحلام لا تــؤدي إلا إليكِ. أخبرتني ذات حلم بأن ســندريللا تنتظرني ما بين رمشةِ عينٍ وإغماضتها، فقررت أن أكمن لها في نُعاس أبلّلهُ من لعابِ لهفتي. شــاهدت الصوت ينزلقُ مبحوحاً من أنبوبٍ ينحدرُ إلي أعلي يطلق عليه اصطلاحاً حنجرة. قلتُ يا صــوتُ صه. يا صوتُ صهْ ولا تجرّدني من

لغتـــي. أتركها في غمدها حتي لا يســـيل من رهبةِ ضجيجها نزيف ما كنت أعتبرها الكلمات.

إنه الليل يا مليكتي. الليل له أصابع ســـريّة يحكّ بها جلد الظلام، فتفقس الشمس من بُرقع بياتها المسائي، وتخرج بيضاء مـــن غير ليل. إنه الليل يثرثرُ محتقنـــاً بألم ماتع يهرس عظام الضوء، فأتمدّد علي ملاءةِ انتظاري وأغني. ً أنتً أيضاً غنِّ. » زوروني كل ســـنة مرة حرام تنسوني بالمرة ». غنِّ واملأ دنك بكـــؤوسِ الصبابات والغني. لم يضِع شـــادي. لم يزل يلعب بالثلج. أَحتاجُ أن أحبك حتي يصيب الدّوار دقات قلبي، حتي يفقد الليل ذاكرة صباحه، حتي يمتلئ حزني بالأغنيات. أحتاجُ أن أحبك حتي. حتي.

يـــا من ترقصين التُـــم تُم في دمي ماذا جـــري لنهدِكِ؟ ألم يخبرني ذات حليب أنه ســـيصنع لي من خيوطِ الحلمِ قهوة؟. سأســـرف فـــي الحلم، ولكني لن أشـــرب بعد اليـــوَم قهوتي الصباحية سادة.

الفهرس